اسم الدرس : منهجية مقترحة لمعايشة سورة من القرآن

تصنيف الدرس : عن القرآن

درس حول منهجية مقترحة لمعايشة سورة من القرآن

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ أهلًا وسهلًا بكم في هذا الدرس، هذا الدرس من الممكن أن نسميه نوعًا من الدردشة؛ ولكنها فيها خصوصية نوعًا ما، فهو درس خاص بسبب كثرة الأسئلة والمناقشات في قضية، سؤال أسأل فيه كثيرًا وبحثت عنه كثيرًا.

مقدمة الدرس:

فدرس اليوم وهو دردشة حول ما وصلت إليه أو ما تناقشت فيه مع بعض الفضلاء حول موضوع: ما هي المنهجية المقترحة لمدارسة أو لمعايشة سورة قرآنية؟

وحقيقة من الدوافع الأساسية لهذا الدرس دردشة مع أحد الفضلاء، وسألني كثيرًا في أسئلة عن سورة كذا، وتفسير سورة كذا، الاستنباطات التي في سورة كذا، كم نقاشات طويلة، ثم بدا لي أن نحول هذه النقاشات إلى درس بحيث أن يكون هذا الدرس أيضًا مطروحًا لأهل الاهتمام بالتفسير، وأهل التخصص، وأهل القرآن، بحيث أن الإنسان يطور من نفسه ولو وجد أي نقد فهي أشبه بمحاولة اجتهادية، أبثها لإخواني وخاصة أهل التخصص في قضية القرآن والتفسير.

ما هي المنهجيات المقترحة أو منهجية مقترحة لمعايشة سورة قرآنية؟

فكما قلت بعض التنبيهات في البداية أن هذا درس تخصصي نوعاً ما، سيكون فيه ذكر أسماء بعض الكتب، ثانيًا هذا الدرس أشبه بدردشة كأني أعمل "بود كاست" مع نفسي، فكأني سأسأل نفسي وأناقشها في بعض القضايا، بحيث أن المنتج النهائي من هذا الدرس أن الإنسان يقدم منهجًا أنا نفسي لم ألتزم بهذا المنهج على مدار كل الدروس التي قدمتها في مجالس القرآن.

فالبتالى أيضًا الإنسان لو وقع في خطأ في مجالس القرآن أسأل الله ﷻ أن يعفو عني، لكن هكذا الإنسان لا يسلم من خطأ.

مجلس اليوم هو أشبه بتقسيمات، لو أن إنسانًا يريد أن يمن الله ﷻ عليه ويعايش سورة، ويدارس سورة وتكون هذه السورة جزءًا من لحمه ودمه، وكان دائمًا يعجبني تعبير فريد الأنصاري رحمه الله حينما كان

يقول: "مذهب التخلق"، وكما قالت أمنا عائشة: "كان خلقه القرآن"[1]، فالإنسان يستمر في مصاحبة آيات الله وكلام الله ﷻ حتى تصبح هذه الآيات جزءًا من لحمه ودمه.

الفكرة من المصاحبة هي أن تجد ركن شديد تأوي إليه في الأزمات :

الإنسان من الممكن أن يكرر الآيات ويدراس ويقرأ ويتعب في مدراسة آيات من كتاب الله □ في سورة قرآنية حتى تصبح هذه السورة جزءًا من لحمه ودمه، يتذكرها دائمًا في المواقف، فأحيانًا يكون الأنسان على جواله مجموعة من الأسماء، هذه الأسماء الإنسان يلجأ إليها، لفلان عندما يكون عنده مشكلة طبية، وفلان يلجأ إليه عندما يحتاج استشارة قانونية، وفلان يلجأ إليه عندما يحتاج لصديق يفضفض معه، وفلان عندما يكون عنده مشكلة في الرزق.

الإنسان من الممكن أن يصل في علاقته بسور القرآن لهذه المرحلة، أنه يعرف عندما يقع في نوع من الأزمات الأمنية أو المشقات في الرزق أو غير ذلك ، يعرف إلى أين يذهب، لأي سورة من كتاب الله ﷻ، أصبح مصاحبًا القرآن، ارتقى من معرفة القرآن إلى مصاحبة القرآن، إلى أعلى درجة من الصحبة، وهي درجة الأهلية حتى يصبح من أهل القرآن كما قال النبي ﷺ أهل القرآن هم أهل الله وخاصته[2].

وحتى لا أطيل عليكم سنحاول كما قلت أن يكون هناك بعض التقسيمات، وهي منهجية ما لو أنا أريد أن أعايش سورة، لو أريد مثلًا أن أختار سورة من سور القرآن، سورة فاطر – سورة سبأ – سورة الرعد – سورة الأحزاب، أي سورة سواء سورة مكية أو سورة مدنية، سواء سورة طويلة أو سورة قصيرة، أنا أريد أن أعايش سورة، فما هي المقترحات؟ كيف أعايش هذه السورة؟ وكيف أعيش مع هذه السورة؟

[1] [عن عائشة أم المؤمنين:] أَتَيْتُ عائشةَ، فقُلْتُ: يا أُمَّ المُؤمِنينَ، أخْبِريني بخُلُقِ رسولِ اللهِ ﷺ، قالت: كان خُلُقُه القُرآنَ، أما تَقرَأُ القُرآنَ، قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ: {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤]، قُلْتُ: فإنِّي أُريدُ أنْ أتبَتَّلَ، قالت: لا تفعَلْ، أما تقرَأُ: {لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [الأحزاب: ٢١]؟ فقد تزوَّجَ رسولُ اللهِ ﷺ، وقد وُلِدَ له.
شعيب الأرنؤوط (ت ١٤٣٨)، تخريج المسند ٢٤٦٠١ • صحيح • أخرجه أحمد (٢٤٦٠١) واللفظ له، وأبو يعلى (٤٨٦٢) مطولاً، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٤٤٣٥) باختلاف يسير

[2] [عن أنس بن مالك:] إنَّ للهِ أهلين من النَّاسِ قالوا من هم يا رسولَ اللهِ قال أهلُ القرآنِ هم أهلُ اللهِ وخاصَّتُه
المنذري (ت ٦٥٦)، الترغيب والترهيب ٣٠٣/٢ • إسناده صحيح

محتوي الدرس :

سنقوم بتقسيمتين كبار، أن الإنسان أولًا يحتاج في علاقته بالسورة إلى **معلومات**، ونسمي هذا الجانب العلمي في العلاقة بالسورة، ثم إلى **معايشة**.

إذًا عندنا تقسيمتين كبار: **الجانب المعلوماتي أو الجانب العلمي** من السورة وسنقول المصادر الخاصة به، والجانب الذي نسميه **جانب المعايشة** مع هذه السورة، وسنذكر بإذن الله ﷻ المصادر.

إذًا الإنسان يحتاج إلى معايشة السورة –جانب المعايشة–، والجانب الآخر وهو الجانب العلمي، لأن بعض الناس يقتصر على الجانب العلمي فقط، ويظن أن الإنسان إذا قرأ في تفسير سورةٍ من القرآن من الكتب، قرأ تفسيرًا أو تفسيرين أو ثلاثة أو عشر تفاسير، يظن أنه وصل الآن بعد قراءة في هذه التفاسير إلى سبر أغوار هذه السورة.

لا، أنا أريد أن نصل لمرحلة أن هذه السورة كأنها بستان، كأننا نريد أن نتصور السورة **صورة**، لنرى ما فيها من بساتين وحدائق وأزهار وثمار، نريد أن نصل إلى حالة من الشغف، فمثلًا هذا الشهر سأعايش سورة مريم، الشهر التالي سأعايش سورة طه، فالإنسان يكون متشوقا إلى معايشة هذه السورة، ويتعب ويجد في معايشة هذه السورة.

الجانب المعلوماتي:

إذًا قلنا يوجد جانب معلوماتي وجانب للمعاشة، **الجانب المعلوماتي** يعني أن أقرأ في آية، أنا قلت هنا نوعًا ما أي أقصد من له باع ولو بسيط في طلب العلم، عنده نوع من الاستيعاب للتقسيمات الشرعية والكتب وتفاصيلها، أقرأ في ماذا ؟

فأنا أقول أن كلام الله ﷻ حتى يفهم يحتاج أن تتمكن من **الأثر** ومن **اللغة**، وأنا أظن والله أعلى وأعلم أن **الأثر واللغة هما الركنان الأساسيان لفهم أي آية من كتاب الله** ﷻ، أن تتمكن وتتعرف كيف تصل وكيف تتعامل مع الآثار الواردة عن السلف، ثم كيف تبحث في اللغة.

قضايا الجانب المعلوماتي :

فسنتكلم في الجانب المعلوماتي في ثلاث قضايا:

*في الآثار.

*في اللغة.

*في كتب أخرى ممكن أن نسميها هنا التفاسير أو كتب أخرى.

إذًا أحتاج أن: أقرأ في الجانب الأثري، أقرأ في الجانب اللغوي، أقرأ في مسألة كتب أخرى، من الممكن هنا أن نتكلم عن التفاسير وإشارة سريعة لبعض أنواع التفاسير، وإن كانت تحتاج إلى درس خاص، أسأل الله ﷻ أن ييسر له بعنوان [خارطة التفاسير].

الجانب الأول من الجانب المعلوماتي هو **الجانب الأثري**:

عندما ننظر إلى الجانب الأثري، كيف نتعامل مع الجانب الأثري ؟ ما هى المصادر؟ فلو فتحت القرآن أريد أن أعايش، وأدارس، وأتخلق بجزء من سورة الأحزاب مثلًا، فأنا أحتاج أن أفتح أو أنظر في الآثار الواردة عن السلف، ثم أحلل، لأن القرآن نزل بلسانٍ عربي مبين، فأحتاج أن يكون لدي فقه للتعامل مع اللغة العربية.

إذًا ما هي المدارس الأثرية، المدارس التفسيرية التي وردت عن السلف؟ كيف أتعامل مع الآثار الواردة؟ ما هي المصادر التي أحصل عليها حتى أستطيع أن أصل إلى هذه الآثار؟ ما هو مجال العمل؟

مجال العمل يعني: هذه الآثار هل هي مجرد أني أنقلها وأقرأها فقط فأكون وصلت للتعامل الأمثل مع آثار السلف، أم أن هذه مجرد البداية والانطلاق؟

نكرر مرة أخرى: قلنا سنتكلم عن الجانب العلمي وجانب المعايشة، الجانب العلمي سنتكلم فيه عن الجانب الأثري، والجانب اللغوي وكتب أخرى.

بالنسبة **للجانب الأثري**، الآن سنحدد بعض النقاط:

النقطة الأولى: أهمية **فهم المدارس التفسيرية**، بمعنى أننا من الاستقراء وما وصل إلينا من آثار بدأ يتكون نوع من التقسيمات للمدارس التفسيرية، مثل ما يوجد مدارس فقهية، وأحيانًا يكون الفارق مذكورًا ما بين الرأي والمذهب والمدرسة، فمن الممكن أن نقول أنه تكونت المدارس التفسيرية، مدرسة مكية ومدرسة مدنية ومدرسة بصرية ومدرسة فى الكوفه وبعضهم أضاف بعض المدارس الأخرى كالشامية، وكالمصرية، في وجود متقدمين في هذه المدارس.

فمثلًا **المدرسة المكية** تتميز بوجود ابن عباس رضي الله عنه وتلامذة ابن عباس الذين تفرقوا، منهم من ذهب إلى الكوفة، ومنهم من استقر في مكة، ومنهم من طاف في البلاد وعاد مرةً أخرى، وليس معنى أننا نقسم أن هناك مجموعة من المدارس التفسيرية الوالدة –سواء عن ابن عباس أو ابن مسعود أو علي ابن أبي طالب أو أبي ابن كعب أو من غيرهم هؤلاء من الصحابة أو من غيرهم من التابعين كالحسن البصري وقتادة وغيرهم من التابعين– ليس معنى الدخول في تفاصيل هذه التقسيمات أنها مدارس منفصلة تماماً، لكن فهم ذلك وفهم تلامذة الصحابة من التابعين وفهم استمرار الشجرة أن الصحابي والتابعين وأتباع التابعين هذا يسهل عليك كيفية التعامل مع هذه الآثار.

ومن الكتب الجيدة التي تناولت القضية كتاب ((تفسير التابعين)) للدكتور محمد الخضيري، وخاصة في الجزء الأول منه، هو جزءان، حقيقة بذل مجهودًا رائعًا باستقراء الآثار التي وردت في تفسير ابن أبي حاتم و تفسير الطبري وغيرها من الكتب، وذكر المدارس التفسيرية وذكر أهم أربع مدارس تفسيرية وإن كان ذكر غيرها، وتلامذة بحيث أن الإنسان يكون على وعي حينما يسمع قول مجاهد من هو مجاهد وتلميذ من، إلى أي مدرسة ينتمي، هذا يكون نوعًا من الفهم.

كما يذاكر الإنسان الفقه فحينما يسمع ابن قدامة مثلًا أو الإمام النووي يعلم إلى أي مدرسة ينتمي، وكيف بنيت معارفه، يكون عنده وعي بالنشأة.

فكذلك حينما يسمع الإنسان مثلًا عن أبي العالية يعرف كيف نشأ، على يد من تلقى العلم، هذه قضية مهمة أن الإنسان يستقرئ ويكون عنده تصور لهذه المدارس التفسيرية.

من المساعدة فى فهم هذه المدارس ونشأتها الكتب التي تكلمت عن تفسير الصحابة كتاب ((المفسرون من الصحابة)) للدكتور المشد كتاب كما قلت ((تفسير التابعين)) له عرض ودراسة مقارنة والدكتور محمد عبدالله الخضيرى.

إذًا هذه النقطة الأولى، قلنا الجانب العلمي ثم تحت الجانب العلمي الأثر واللغة وكتب أخرى، بالنسبة للأثر أولًا فهم المدارس، ثانيًا معرفة المصادر، كيف أحصل على هذه الاثار؟

النقطة الثانية: معرفة المصادر، حقيقةً كل مهتم بهذا العلم عنده خلفية كيف يحصل على هذه الآثار؛ ولكن سريعاً وإن كان هذا أيضا سنذكره فى كتب التفاسير، أن هناك كتب اهتمت بنقل الآثار، سواء كتب التفاسير أو المصنفات التى وردت إلينا كابن شيبه وغيرها.

ولكن بالنسبة لكتب التفاسير، التفاسير الأثرية هذه المعلومة الأولى أن يكون محلها فى تقسيمة التفاسير، لكن سريعًا التفاسير التى اهتمت بالآثار نوعان، وغالب هذه التقسيمات اجتهادية، ليست تقسيمات حادة، كل التفاسير الأثرية نوعان:

*نوع اهتم بسرد الآثار فقط بدون التدخل، كتفسير ابن أبي حاتم ومن المتأخرين السيوطي الدر المنثور،

*أو سردت الآثار كنوع من التدخل كالتوجيه أو الترجيح أو الدعم لنصوص أخرى من القرآن أو السنة أو غير ذلك، والعمدة فى هذه التفاسير الطبري رحمه الله، والبغوي، وابن كثير.

أحاول هنا أن أراعي الترتيب الزمني، الطبري و البغوي وإن كان هو نقل عن الثعلبي وغيره نوعًا ما، نقول الطبري، والبغوي، ابن كثير رحمهم الله جميعًا.

فإذًا **معرفة كيف يتعامل الإنسان مع هذه المصادر – وفهم لغة المفسر** : تسهل على الإنسان.

فبعض القراء لتفسير الطبرى لايستطيعون التفرقة بين القول الذي ذكره وبين القول الذي مال إليه، أو القول الذي رجحه، وحقيقة تفسير الطبري من أبدع وأجمل التفاسير التي تحتاج إلى معايشة لفترة طويلة حتى تصاحب هذا الإمام وتفقه عنه كيف يفسر، وأظن والله أعلى وأعلم أن جودة هذه الكتب التى كتبت فى منهج الإمام الطبري وخاصة الكتب المتأخرة التي صدرت حديثا مثل كتب الدكتور "نايف الزهراني" التي كتبت عن منهج الإمام الطبري، لكن أظن لابد للإنسان أن يعايش بنفسه، ولا يكتفي

بهذه الكتب ويعطي لنفسه فترة طويلة لمعايشة تفسير الطبري حتى يفقه كيف يتعامل الإمام مع هذه الآثار.

إذًا تكلمنا في الجانب الأثري عن فهم المدراس ، ومعرفة المصادر.

النقطة الثالثة: وهي قضيه شائكة وفيها نقاش طويل، **قضية أسانيد التفاسير**، لأن الآثار كيف وردت إلينا؟ وردت إلينا من خلال أسانيد، ثم دونت فى كتب التعامل أيضًا مع أسانيد التفاسير، أي أن له أكثر من جذر، له جذور تتصل بقضية المصطلح و علم الحديث، وهل تعامل أسانيد التفاسير كما تعامل أسانيد الأحاديث.

وهنا دار نقاش طويل بين كثير من المتقدمين وأيضًا من المتأخرين، وإن كانت هذه القضية اشتعلت عند المتأخرين وفيها نقاش طويل، منهم من يرى أنها لا تعامل معاملة أسانيد الحديث، و من المدرسة المعاصرة الدكتور مساعد الطيار تبنى هذه القضية، وكتاب ((اختلاف السلف فى التفسير)) للدكتور محمد سليمان تلميذ الدكتور مساعد طيار تبنى أيضًا هذه القضية، وشرح فى فصل من مقدمة الكتاب اختلاف سند التفسير، هذا الرأي والدكتور نايف الزهراني وغيرهم وإن كان هناك من يرفض من أهل الحديث هذا المذهب.

ولكن الخلاصة معرفة الأسانيد حتى لو لم تعامل معاملة أسانيد الحديث بنفس الدقة، لكن يجب فهم السند، وأنا ظني والله أعلى وأعلم فيما أميل إليه أن **القضية ليست هندسية**، بمعنى لا نتعامل مع السند أنه صحيح فيقبل مطلقًا أو ضعيف فيلقى مطلقًا، وهذا وفى ظني ما فعله الإمام الطبري، حسب الأثر الذي ورد إلينا عن المفسر من السلف أو من الصحابة أو من التابعي، كان يفسر مفردة أو كان يتكلم فى قضية عقدية، يعنى مثلًا من الروايات المشهورة التى أحدثت خلافًا طويلًا بين المتقدمين والمتأخرين رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

*رواية على بن أبي طلحة عن ابن عباس بعض العلماء حسنها وقال فيها انقطاع وإن كان الانقطاع معروفًا وثقة وهو سعيد ابن جبير أوغيره، وبعضهم قال لا فيها انقطاع وما يدرينا أن ما بين على بن أبي طلحة وابن عباس ثقة، وبعضهم قال هي صحيفة وغير ذلك، وبعضهم حسنها وبعضهم ضعفها.

الخلاصة أن هذا السند في ظني لا يعامل معاملة واحدة على طوال التفسير، سواء إذا كان قضية في مفردَة أم في سياق عقدي أم ترجيح فقهي، فيختلف الأمر، فالعلوم فيها نوع من التداخل وليس هناك دليل واحد فقط للمسألة، فالقضية الفقهية لا يتعامل معها فقط بمجرد هذا السند، كأشبه بنوع ما من التعامل في علم علل الحديث، فكذلك تعامل أسانيد التفاسير، تحتاج في ظني والله أعلى وأعلم إلى نوع من تربية هذا الحس في التعامل مع أسانيد التفاسير.

الخلاصة أنه مطلوب فهم قضية الأسانيد وفهم شجرة الأسانيد –وهذا أيضًا مرتبط بفهم المدارس–، ومن الكتب الطيبة الجميلة التي كانت في الأصل محاضرة سمعتها من الشيخ طريفي ونزلت في كتاب ((التقرير في أسانيد التفسير)) وهو كتاب متميز حقيقةً على صغر حجمه لكن كتاب متميز، وكتاب التقرير في أسانيد التفاسير للشيخ الطريفي مع ((تفسير التمام)) للدكتور الخضيري يكونا نظرة عند الإنسان عن هذه المدارس.

أيضًا مسألة أن القائلين بمسألة نُسَخ التفاسير وأنها صحيفة، وأن بعد عدد معين من السند مثلًا سعيد بن جبير عن ابن عباس، أيًا كان الراوي عن سعيد بن جبير، بعضهم قال هنا صحيفة فلا داعي للنظر في بقية الإسناد حتى لو مليء بالضعفاء، بعض الناس تبنى هذه القضية ومن أشهر الكتب التي كتبت في هذه المسألة ((كتاب أسانيد نسخ التفسير والأسانيد المتكررة في التفسير)) أيًا كان، اختلفنا مع بعض الترجيحات التي وصل إليها المؤلف أو لا فالكتاب حقيقةً بذل فيه جهد طيب للدكتور عطية بن نوري آل خلف الفقيه، دار كنوز أشبيليا قيم حقيقةً وبذل فيه جهد طيب.

في مسألة أسانيد التفاسير : مهم أن الإنسان يكون على **وعي**، ففهم الأسانيد مع فهم المدارس وفهم الصحابة والتابعين وأتباع التابعين هذه الشجرة يهيئ للإنسان حينما يتعامل وكأنه أصبح واحدًا منهم، من هؤلاء فلم تعد هذه الأسماء غريبة على أذنه، فهو يسمع الراوي عطاء عن ابن عباس فمباشرة الذهن يفكر من عطاء هذا أم هذا، والسند متصل أم لا، هو دائمًا ذهنه مشغول بهذه القضية.

أيضًا من القضيا المشهورة جدًا والتي ذكرت في قضية أسانيد التفسير التفريق بين الراوي، حتى لو ضعيف أو حتى متهم بالكذب هل هذا الراوي يروي عن غيره أم هو قول له؟ فقد يكون هذا الراوي مفسرًا عالمًا باللغة له باع في التفسير لكن هو ضعيف في الحديث، فقد لا تقبل روايته عن ابن عباس مثلاً لكن هو قوله معتبر، وهذا يعرفه أهل هذا الفن.

لكن الخلاصة الجانب العلمي فيه الجانب الأثري الذي فيه فهم المدارس ومعرفة المصادر وقضية الأسانيد وهي قضية يطول الكلام فيها.

آخر شيء أريد أن أتكلم فيه، وهي قضية هامة جدًا: **مجال العمل**، ماذا يعني مجال العمل، أي أن بعض الناس **يتصور** أننا حين نقول أهمية الآثار والرجوع إلى الآثار أننا نقوم هنا بإغلاق قضية التفسير؛ في حين أصلًا أن التعامل مع النص القرآني وهذا سأذكره في أو قبل جانب المعايشة، أي ما بين الجانب المعلوماتي وجانب المعايشة سأذكر الكلام في هذه القضية.

النص القرآني جاء لنعيش به، فالقرآن لم ينزل لفترة معينة، فبعض الناس يحدث عنده نوع من الاضطراب كيف نعود إلى أقوال السلف في التفسير، ثم كيف نحن مطالبون بالتدبر في القرآن وأن يكون القرآن حلًا لمشاكلنا الواقعية، بل أقول: التعامل مع القرآن بصورة أنه لا يوجد فيه حل لمشاكلنا المعاصرة أظن فيه شائبة بالقول بتاريخية القرآن الكريم.

تكلمنا في هذا في الدرس الخامس في سلسلة أصول الانحراف، في درس ((ابتغاء تأويله)) الذي هو معركة النص أن هناك أناس من العلمانيين لا يريدون أن يتحاكموا إلى النص القرآني فقالوا بتاريخية النص القرآني، أي أنه نزل لمرحلة ما، فلو أننا نريد حلًا لقضايا معاصرة الآن فلا نريد أن نذهب إلى القرآن، وللأسف ممكن أن يكون في العقل الباطن اعتقاد أن القرآن لا يوجد فيه حل لهذه القضايا أي وكأننا نستبطن داخليًا هذا القول أن القرآن نزل لمرحلة تاريخيةٍ ما.

فبعض الناس يعتقد أن الإصرار على الرجوع لآثار السلف يؤدي إلى القول بتاريخية القرآن الكريم وأننا أغلقنا بذلك فهم النص القرآني، فلن نستطيع أن نتعامل مع الواقع لأن نصوص السلف اغلقت الفهم وأوقفت الفهم، وحقيقةً **هذا فهم خاطئ** بل أنا أراه نوعًا من الفهم السطحي، بل القارئ في كتب التفاسير للمتقدمين حتى المعاصرين لا يرى ذلك.

الحركة العلمية للتفسير التي عظمت كلام المفسرين من السلف لم تنتج هذا الإنتاج، أي لم تنتج لنا سقفًا ومنعت لنا، بل تفسير السلف وآثار السلف هي أشبه بضابط، بمعنى أن **كلام السلف ضبط لنا الفهم ووسع لنا الأفق.**

ليتنا نخرج بهذه القاعدة كلام السلف ضبط لنا الفهم يعني هو وضع لنا نوع من السياج حتى لا نميل يمينًا ولا يسارًا، ولا يحدث خلل في الفهم، ثم ترك لنا الطريق واسعًا وقال انطلقوا، أي يوجد هنا مساحة، كلام السلف يضبط لنا فهم القرآن حتى لا يحدث خلل، وكلام النبي ﷺ وكلام الصحابة وكلام السلف يضبط لنا فهم النص القرآني حتى لا يحدث نوع من التحريف للنص القرآني، أو تأويل النص القرآني، وأن توجد حالة من النص المفتوح الذي تكلمت عنه في درس "معركة النص" وحالة من النص الشخصي ، وأن الإنسان يتعامل معه كما يشاء والنص المفتوح، لا، فالسلف ضبطوا لنا ثم تركوا لنا مساحة من الانطلاق في التعامل مع النص القرآني.

وهذا يحتاج إلى توازن لذلك أنا أسمي هذه القضية مجال العمل، حقيقةً من قبل أن أقرأ ما هو مجال العمل، يوجد نص جيد وجدته في كتاب العقائدية وتفسير النص القرآني للدكتور ياسر المطرفي صفحة ١١٥ ذكر هذا المعنى، ذكر الإشكال ثم ذكر له حلًا، وعاد في الحل لكلام للدكتور حاتم شريف وكلام للإمام الطبري وكلام لابن كثير، وحقيقةً ذكر المشكلة وقال: ((هذا التقديم للصحابة في فهم لغة النص قد يفهم على أنه سيؤدي إلى إغلاق...)) نفس المشكلة أو أن بعض الناس عنده نفرة من أنك تقول له أهمية الرجوع لآثار السلف فيقول أنتم بذلك قفلتم النص القرآني، كيف؟ والتدبر ومعايشة النص والإسقاط على الواقع، فهنا ذكر هذه الإشكالية وقال: "هذا التقديم للصحابة في فهم لغة النص قد يفهم على أنه سيؤدي إلى إغلاق أو تضييق باب تفسير النص القرآني، وهو في هذا الأمر –أي إغلاق النص القرآني– وهو ما يعتبر مخالفة صريحة للنصوص القرآنية التي تدعو إلى تفهم القرآن وتعقله وتدبره والتي جاءت عامة ولم تختص –أي التفهم والتدبر– لم تختص بأناس دون غيرهم..." هذا الاستشكال.

ثم بدأ هنا الرد، والرد هنا في صفحتين تقريبًا صفحة ١١٥ و١١٦ و١١٧ يقول أن هذا الاستشكال مبني على تعامل ظاهري مع هذه الفكرة دون الدخول إلى تفاصيلها التي من خلالها يمكن إدراك حقيقتها، وذكر أن وجود طائفة مميزة في فهم أصول النص القرآني لا يعني إغلاق ذلك عند كل القائلين بوجود هذه الطائفة، بل الشيعة عندهم في آل البيت لم يتوقف عندهم مع اعتراضنا على هذا الأمر، ولكن هو كان يذكر السياق التاريخي ثم في صفحة ١١٦ قال وهذا جواب من خلال واقع حركة التفسير العملي، يعني حركة التفسير العملي أثبتت أنها لم تتوقف، مع احترامهم لوجود طائفة مميزة تفهم النص القرآني.

ثم قال: "أما من جهة التفسير فنحن في تفسير الصحابة **أمام ثلاثة أمور**..."، ركزوا معي فهذا الذي أسميه وذكرته وسأذكره الآن **مجال العمل**، أي أن النصوص التي جاءت من السلف جاءت في ماذا؟ تكلمت في ماذا ؟ فقال: "أمامك ثلاثة أمور:

*إما التفسير للمفردة اللغوية

*أو تفسير السياق التركيبي

*أو –هو سماه هنا– مرحلة ثالثة بعد المفردة وبعد التركيب، ما بعد التفسير وهو الاستنباط

فتمايز مفسري الصحابة يبدأ بحسب الترتيب السابق..."، هنا الدكتور ياسر يقول أن تمايز مفسري الصحابة حسب الترتيب، هل هو يتكلم في المفردة الصحابي يشرح لنا المفردة أم أنه يشرح لنا تركيب الجمل، وتركيبها –وسأتكلم في هذا في اللغة وأهمية اللغة في فهم النص القرآني– أم استنباط من المفسر واجتهاد من المفسر، فيقول "المفردة أقوى من حيث الاعتماد من السياق والسياق أقوى من الاستنباط"، ثم وضح ما به من أمور تفريق ما بين المفردة والسياق والتفريق بين الفهم والاستنباط.

حتى لو خالفنا الدكتور ياسر في هذا التقسيم يعني لا أرى اعتبار كل الأسانيد ولا كل ما ورد بنفس الدرجة، وهذا ما يجده المتأمل و الناظر في تفسير الإمام الطبري بالرغم من التأصيل، بل حتى الإمام ابن كثير بالرغم من التأصيل العام لقضية تفسير القرآن بالقرآن والتفسير النبوي وتفسير الصحابة ثم تفسير التابعين، إلا أن الناظر لهذا لا يجد هذه قواعد هندسية جامدة بل **هي أداوت** يمتلكها المفسر ثم يذهب إلى النص القرآني ويتعامل على حسب **قوة الأثر وقوة السند ومجال العمل لهذا الآثر**

فمجال العمل –للأثر– إما يكون في مفردة وقوله حجة معتبر فهم من أهل اللغة، أو جاء ليضبط الفهم، فأحيانًا يأتي الأثر ليقول لك لا تفهم هذه الآية على أنها كفر أكبر مثلًا، لا تفهم هذه الآية على أنها خاصة ببني إسرائيل فقط، هي جاءت لتضبط، فجاءت لتضع مجالًا للعمل للاستنباط، فانطلق أنت، فيقول لك هذه الآية لا تتوقف في تفسيرها على بني إسرائيل، فبئست الأخوة إذًا، فجاءت لنا ولهم.

فمجال إعمال المفسر أن يبحث عن أمراض هذه الأمة ثم يتدبر وينظر في هذه الآية، أوينظر في هذه الآية أولًا وينظر في أمراض الأمة ثم يقوم بحالة التنزيل على الواقع أو ما يسمى **بالإسقاط على الواقع**، هذا دور المفسر وقد يصيب وقد يخطئ.

إذًا مجال العمل إما في المفردة الواردة عن السلف أو في ضبط فهم وبالتالي يفتح أفقًا، أو أيضًا الناظر في الأسانيد ينظر في قضية أسباب النزول وهذا سيفيدنا في نقطة مهمة جدًا في مسألة المعايشة.

إذًا **الآثار الواردة قد توضح لك الجو العام الذي نزلت فيه هذه الآيات** وهذا يساعد الإنسان حينما يريد أن يستجلب هذه الآية في واقعنا المعاصر لابد أن يفقه الواقع الذي نزلت فيه هذه الآيات، فالآثار الواردة أشبه بالخلفية نوعًا ما، بالخلفية الدرامية للأحداث، فإذا أردت أن تستصحب هذه الآيات في واقعنا المعاصر تفيدك الآثار بفهم هذا الواقع، كمثلًا الآثار الواردة في سورة آل عمران سواء في الرد على شبهات النصارى أو في غزوة أحد من الآية ١٢٠ {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ }[آل عمران ١٢٠].

وهنا يحتاج الإنسان إلى فقه أيضًا في التعامل مع **أسباب النزول**، ومن أهم الكتب التي حاولت أن تتعامل مع أسباب النزول -ليس بالطريقة الفردية مثل كتاب الإستيعاب مثلاً وغيره-، هناك كتب تعاملت مع الأمر بنوع من التحرير وفقه أسباب النزول ككتاب ((المحرر في أسباب النزول))، وحقيقةً هو كتاب جيد وفتح بابًا جديدًا للتعامل في مسألة ترجيح أسباب النزول وكيف نتعامل مع أسباب النزول، لوجود تداخل في أصول التفسير وعلوم القرآن، الكتب التي تناولت قضية أسباب النزول تناولتها للتأصيل كثيرًا، مثلًا مسألة فنزلت أو فنزل أو هل حرف العطف يفيد التعقيب المباشر، أو تكرار النزول، أو أن هذا كان استشهادًا من الصحابي بالآية على الواقعة، أم أنها تكررت النزول، كل هذه كانت تأصيلات جيدة في كتب أصول التفسير، لكن حينما نأتي إلى التطبيق الأمر أظنه يحتاج إلى ممارسة أكبر وهذا ما قام به نوعاً ما، مسألة تحرير ما هو سبب النزول في الواقعة في كتاب المحرر في تفسير النزول، ولو أنه اقتصر على بعض الكتب المسندة ولم يستوعب كل الآثار الواردة

أيضًا عندما نقرأ آثار السلف نحن نتكلم هنا عن مجال العمل للآثار الواردة عن السلف، كيف فسروا هم القرآن؟ أي هل هم تأملوا؟ هل هم نقلوا؟ أي أن الصحابي أو التابعي هل هو في هذه اللحظة حينما تكلم في القرآن هل كان راويًا أم كان مفسرًا؟ الصحابي مهم جدًا.

حينما تقرأ كلام ورد عن الحسن البصري أو قتادة أو أي تابعي من أي مدرسة من المدارس أو حتى أتباع التابعين فدرجة الكلام تختلف، هل هو من الصحابي أو التابعي أو من أتباع التابعين، حينما تقرأ أنت لابد أنك تكون على وعي، هل هو الآن يقوم بنقل أم لغة أم أنه يتأمل أم أنه يسقط على الواقع؟

هو رأى مشكلة أو فتنة في عصره مثل قضية القدرية، فرق القدرية أو الخوارج أو مسألةٍ ما حدثت من اختلاف بين الصحابة، فهو الآن يقوم بتنزيل الآيات، هو يقوم الآن بتنزيل الآيات على واقع لم يكن في عهد النبي ﷺ، وهذه الآيات يقينًا لم تنزل في الواقعة التي جاءت بعد فهنا الآن هو يقوم باستجلاب المعنى الذي نزل في حياة النبي ﷺ على واقعة لم تكن قبل وفاة النبي ﷺ، فهذا أمر مهم، نتعلم كيف يقوم بهذا الأمر حتى نتعلم منه هذه الملكة، فهذه النقطة الأولى كيف كان يتعامل المفسر.

أيضًا أحيانًا وهذا كان شيئًا عجيبًا، مثلًا حينما يقوم المفسر بتفسير كلمة في النص القرآني وظاهريًا ورد له أثر عن النبي ﷺ بتفسير لا أقول مخالف لكن فيه نوع من الخصوصية، مثال –وإن كان السند تكلم فيه بعض الناس والبعض الآخر حسنه–، الرواية الواردة عن ابن عباس أو عن سعيد بن جبير في تفسير الكوثر، ذكرها الإمام الطبري أنه الخير الكثير رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس أو حتى عن سعيد بن جبير، فحينما قيل له أن النبي ﷺ قال أن الكوثر نهر في الجنة، فقال هو من الخير الكثير، وتكلم في هذه المسألة شيخ الإسلام.

وحينما تكلم النبي ﷺ عن آية {لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ...}[التوبة ١٠٨] هل السياق التاريخي أنه مسجد قباء أم التفسير الذي ورد عن النبي – أنه المسجد النبوي، أو {غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ...}[الفلق ٣]، أو غير ذلك.

أن أحيانًا ينص النبي ﷺ على شيء معين ومحدد في هذه الآية ثم يأتي المفسر ويوسع هذه الدلالة ويريد أن يقول أو ينص ويقول هذا الأمر الذي هو مسجد النبي ، أو نهر الكوثر، هو أحق ما يوصف بهذا

الوصف؛ لكن لا يمنع دخول غيره في هذا الوصف، إذًا وصف مسجد النبي ﷺ بأنه {مَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ}[التوبة ١٠٨] لا يمنع هذا الوصف دخول مسجد قباء تحت هذا الوصف، وإن كان الأولى بالتسمية هذا، كنهر النبي ﷺ في يوم القيامة في الجنة –نهر الكوثر– لا يمنع أن النبي ﷺ أعطي الخير الكثير ومن ضمن هذا الخير أو أعظم ما يصدق عليه الكوثر هو هذا النهر.

فمسألة توسيع الأفق أيضًا يحتاج إلى ملكة، ويحتاج إلى امتلاك أدوات، ولا يكون هكذا اعتباطًا.

فإذًا **التحديد لا يعني دائمًا الانفراد، التحديد لا يعني أن هذا فقط ولا يدخل فيه غيره.**

أيضًا مفهوم قد نسميه كما قال شيخ الإسلام وغيره ممكن يسمى **قضية القياس**، وهذا يكون فارقًا، وهذا هنا فتح ملفًا شائكًا أيضًا وهو **التفسير الإشاري**، هل نسميه من باب القياس؟ –الدرس هو دردشة فغالب الأمثلة أستحضرها تلقائياً– فمثلاً في سورة البقرة في قصة طالوت وجالوت حينما قال لهم {إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ...}[البقرة ٢٤٩]، فحينما يقول بعض المفسرين النهر هنا هو الدنيا، هنا نقول له أين...، وأنت تدخل في الباطن، وأنت ابتعدت عن ظاهر النص القرآني، والدخول في التأويل، بينما حين يقول آخر: و**كما** ابتلى الله هذا الجيش بنهر في طريقهم (فهنا هذا السياق) فيبتلي الله ﷻ كل سالك في طريق نصرة دينه بفتنةٍ، فإن وقع فيها فليس مني فهنا (كما) هذه هي القياس.

المهم أن الإنسان يكون عنده القدرة على هذا القياس، لأن هذا القياس لو كان الإنسان موفق فيه وله أدواته وله أركانه كما في القياس الفقهي، لو الإنسان وفق فيه هو الآن يساعد في كيفية تفعيل النص القرآني في الواقع مستفيداً من الآثار الواردة عن السلف، وهذا ممكن أن يكون قضية بحثية للدارسين في التفسير، كيف قام مفسروا السلف بهذا القياس، فيذكر آية نزلت في قضية معينة فيقول: "وكما هذه الآية نزلت في كذا فقد يكون كذا" ويسقط على واقعه.

وهذا أمر مهم جدًا، وسيأتينا في جانب المعايشة، فهم مجال العمل فيه توسيع لمجال العمل بالآثار الواردة عن السلف، فيكون المفسر على مستوى القياس ليستطيع أن يُفعل النص القرآني في الواقع مستفيدًا بآثار السلف عن طريق مفهوم القياس.

وآخر شيء في مسألة الآثار .. النقطة الرابعة: **دراسة منهجيات المفسرين الذين اهتموا بالآثار**، ولكن ليس فقط عن طريق السرد وإن كان هذا مهم جدًا، وطبعًا من الكتب المعاصرة ((موسوعة التفسير بالمأثور)) جزاهم الله خيرًا، وفرت جهدًا عظيمًا للإنسان الذي يريد أن يمر مرورًا سريعًا دون أن يقرأ في كثير من التفاسير.

لكن دراسة منهجية المفسرين مثل منهجية الإمام الطبري، أو حتى الإمام البغوي، أو ابن كثير، والتفاسير التي اهتمت بالآثار كثيرة، لكن حقيقةً الإمام الطبري له فضل على كثير من المفسرين من بعده، وكان طفرة في هذا الوقت، فمعايشة تفسير الطبري مهمة جداً لامتلاك هذه الأدوات، ولمعايشة كيف تعامل السلف مع النص القرآني، وكيف تعامل المفسر مع هذه الآثار التي قد تبدو في غالب الأمر إلى تشتت واختلاف و..و..و...، وكيف ساق هذا الأثر أن هذا في المفردة، ولو في اللغة فهو جاء ليخصص وجاء ليفسر بالمثال وجاء ليفسر بالواقع وجاء...، إذًا مدارسة هذا الأمر تحتاج إلى نوع من امتلاك الملكة للتعامل مع هذه الآثار.

قلنا سنتكلم عن جانب العلم وجانب المعايشة، جانب العلم: الآثار واللغة والكتب المهمة ومنها التفاسير، انتهينا من الجانب الأثري، نأتي للجانب اللغوي.

الجانب الثاني من الجانب المعلوماتي هو **الجانب اللغوي**:

إذًا الإنسان الذي يريد أن يدرس سورة قرآنية يريد أن يتخصص، لأن من الممكن أن يقول أحدكم "إن هذا الدرس عقدني فقد كنت أعتقد أنك سترشدني أن أقرأ خمس كتب وأنطلق في النص القرآني"، لا نحن نريد أن نوازن وإن شاء الله في آخر المجلس أذكر بعض الكتب التي يمكن أن تساعدنا ببساطة على مجالس مدارسة القرآن، لكننا نريد أن **نوازن** بين الجرأة على النص القرآني -بسبب فتح باب التدبر- وبين الاتجاه المقابل المعاكس الذي حبس النص القرآني ولم يفعله في الواقع.

فهناك أناس حاولوا حبس النص القرآني ومنعوا من الاستفادة من النص القرآني في واقعنا، وهناك أناس توسعت بزيادة في التعامل مع التدبر وبدون امتلاك أدوات، فنريد أن نوازن بين هذين الاتجاهين.

وبالنسبة للغة مهم جدًا أن الإنسان حين يدخل للآية من القرآن، هذا القرآن نزل {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}[الشعراء ١٩٥]، والآية جملة أو جمل، والجملة تتكون من مفردات، ففهم التركيب للجملة العربية أنها مفردة عربية بجوار مفردة رُكبت وأُسندت –قضية الإسناد–، ركبت مفردة مع مفردة لسياق معين ثم جاءت مفردة أخرى سواء لفظ أو حرف أو... أو...، وتكونت جملة.

فمثلًا ممكن يكون أمامنا فعل واسم وحرف جر ومجرور ثم اسم آخر ثم اسم آخر ثم فعل آخر فتتكون الجملة.

دور الإنسان في التعامل مع اللغة وكأنه يريد أن يمتلك ناصية هذه الجملة، يفهم على ثلاث مراحل:

* يفهم كل **مفردة** ماذا تعني.

*ويفهم **تركيب هذه المفردات** كيف ركبت.

*ثم **المعنى المجمل** الذي خرج من تركيب هذه المفردات.

أي فهم المفردات، فهم التركيب، فهم المعنى المجمل، كثير من التفاسير البسيطة التي يستفيد منها عموم الناس تهتم بالتفسير المجمل، ولو أراد أحدهم التفسير للناس عن طريق التفسير الإجمالي أو المعنى المجمل لابد أن يتقن فهم المفردات، وفهم التراكيب.

نأخذ مثال علي هذا:

فلو قلنا مثلًا قال الله ﷻ في سورة السجدة {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}[السجدة ٥].

{**يُدَبِّرُ الْأَمْرَ** مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ **ثُمَّ يَعْرُجُ** إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ} فأنا أحتاج أن أفهم أولًا معنى {يُدَبِّرُ} وما المقصود ب {الْأَمْرَ} ؟ وما معنى {يَعْرُجُ} ؟ ولمَ لم يقل [يصعد]؟ وما هو الفرق بين العروج والصعود؟ أنا بذلك أفهم المفردات.

وسأتكلم الآن عن كل شيء من هذه الأشياء: المفردة ،التركيب، المعنى المجمل، هذه العناصر الثلاثة، كتب تساعدنا في هذا وعلوم تساعدنا في هذا.

بعد أن أفهم المفردات أريد أن أفهم التركيب، ما معنى هذا؟ أي {الْأَمْرَ} هذه مفعول {يُدَبِّرُ}، و {ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ}

{فِي يَوْمٍ} هذه متعلقة بـ {يَعْرُجُ} أم متعلقة بـ {يُدَبِّرُ}؟

فلو {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فِي يَوْمٍ} لها معنى غير {يَعْرُجُ فِي يَوْمٍ} لها معنى آخر.

بل نحن لو أردنا أن نقسم المعاني الواردة في هذه الآية في ظني إن بداية التقسيم: هل معنى {فِي يَوْمٍ} تعود على {يُدَبِّرُ} أم تعود على {يَعْرُجُ}؟، وتختلف المعاني، فهم المفردات ثم فهم التركيب كيف تركبت هذه الجملة، ثم تستطيع بعد ذلك أن تقول يقول الله ﷻ في هذه الآية كذا، وتقدم معنى إجماليًا كما ما في تفسير السعدي أو التفسير الميسر أو في المختصر، يقدم معنى إجماليًا بعد فهم المفردات والتراكيب.

المعنى الإجمالي على سهولته عند الناس في استقبال الناس له على صعوبته عند المفسر، يحتاج إلى خطوات كثيرة قبل أن يتكلم في هذا المعنى الإجمالي، لأن هذا المعنى الإجمالي أصلًا قد يختلف على حسب ترجيحه لفهم هذه المفردة، وعلى حسب ترجيحه لكيف ركبت، وعلى حسب ترجيحه لقراءة معينة، على حسب هذه الأمور قد يختلف المعنى الإجمالي.

فقد يقول الإنسان: على القول بأن حرف الجر متعلق بهذه الكلمة وهذه اللفظة معناها كذا فيكون المعنى الإجمالي كذا وكذا وكذا، وعلى قول أن هذه متعلقه بكذا وهذه اللفظة معناها كذا وأن سبب النزول الأصلي كذا فتكون الآية معناها كذا وكذا وكذا.

إذًا؛ نحتاج إلى فهم هذه الأمور الثلاثة: المفردة، التركيب، المعنى المجمل.

النقطة الأولى في الجانب اللغوي هي فهم المفردة.

مثلًا: إذا كنت أريد أن أدرس –وقلت أن هذا الدرس تخصصي بعض الشيء فمن له دراية باللغة مستوعب ما أتكلم عنه–؛ فما هي الكتب التي أرجع لها لكي أفهم المفردة؟

بالإضافة إلى المعاجم العربية؛ توجد الكتب التي اهتمت بالمفردة القرآنية، ولا يستطيع إنسان مهتم بهذا المجال أن يتغافل عن "المفردات للأصفهاني". أو يعود إلى الكلام عن الجذور.

وهنا عِلم التفريق ما بين هذه المفردة وهذه المفردة، ولا سيما عند القائلين بعدم وجود الترادف في القرآن -المسألة أيضًا طويلة؛ هل توجد في اللغة أم لا؟، أو هل يوجد في القرآن أم لا؟-، فعند القائلين بعدم وجود الترادف في القرآن؛ لا بد أن يبحث عن الفرق مثلًا بين كلمتي (الريب) و(الشك)؟ وما أصل كلمة (الريب) في الاشتقاق؟ وكذلك ما الأمور التي اشتقت من {وَلَا تَنْهَرْهُمَا}[الإسراء ٢٣] ولماذا لم يقل: (لا تغضبهما)؟ وما الفرق بين أصل كلمة (لا تنهر)، و(النهر)، و(النهار)، وأصل هذه المادة عمومًا. فالبحث في هذا شيق جدًا وممتع ومفيد في مسألة التعامل مع النص القرآني.

إذا كنا سنتكلم على مستوى اللغة وعلى مستوى المفردة؛ فما هي العلوم التي تساعدني في تثوير النص القرآني من خلال فهم المفردة؟

أولًا: البحث عن معناها في المعاجم.

ثانيًا: الأصل اللغوي والجذر اللغوي لها.

وهذا من خلال العودة لكتب مثل: الأصفهاني، أو ((مقاييس اللغة)) لابن فارس. أومن الكتب المتأخرة -وجزاه الله خيرًا وقد أبدع فيها- كتاب ((المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم)) للدكتور حسن جبل، وكتاب للمصطفوي؛ وإن كان فيه تشيع وتصوف لكن به أيضًا جهد لغوي جيد في مسألة اللفظ ويهتم بالمفردات القرآنية، وهو كتاب كبير يقع في أربعة عشر مجلدًا واسمه: ((التحقيق في كلمات القرآن الكريم))، ولكنه فيه بعض الأخطاء العقدية، ولكن نحن نبحث فيه لمسألة اللغة.

فعلى مستوى المفردة نبحث عن: المعنى، الجذر، وأيضًا الصيغة التي جاءت بها، مثل صيغة: فعيل، فعل، تفعَّل، فما هي الصيغة التي جاءت بها المفردة؟ وهذا ما قد نطلق عليه علم: معاني الأبنية في اللغة العربية. والكتيب الجميل المبدع، وبالرغم من صغره لكنه تفنن ويوفر الجهد على الإنسان؛ كتاب لفاضل السامرائي ((معاني الأبنية في العربية)) وغيره من الكتب في هذا الباب.

فعلى مستوى البناء هل يفيد التكلف، أم يفيد التدرج، أم يفيد المبالغة، أم يفيد السرعة، أم يفيد التمكن؛ كل هذا من الاشتقاق. مثل: {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ}[هود ١٢] لماذا لم يقل: (وضيق)، فما الفارق بين الاسم المشتق والمصدر والاسم، ومجيء المصادر مكان المشتقات... فهناك بحر في مسألة الصيغة!

فالتثوير في المعنى: في المعجم، والمعاني التي وردت في لسان العرب وكتاب الأزهري. والجذر الجامع لكل هذه المعاني. والصيغة عن طريق البناء.

تخيل؛ وأنت تدرس سورة ما، وهذا ما ستفعله بكل كلمة تمر عليها! تخيل؛ إذا كنت تريد أن تدرس سورة ما وتبحث عن كل لفظة والمعاني التي وردت في المعجم، وتحاول الوصول للجذر الجامع لهذه المعاني، وتحاول البحث في الصيغة التي وردت بها!

بل وأيضًا حينما نتجه إلى الحروف ستجد بحر في مسألة حروف الجر، ومعاني الحروف، وهل هناك تناوب بين حروف الجر -وأنا لا أميل لهذا القول-. وإذا قلنا بعدم التناوب بين حروف الجر؛ فلماذا جاء بهذا الحرف مع ذاك! هل حصل نوع من التضمين؟! —وهذا يفهمه من قرأ في البلاغة- أم الحرف هنا هو الذي له معنى، أم أنه يحمل معنى ثابت...!

ومن الكتب الجميلة المعاصرة: (من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم)، وكتاب (من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم) طبعة مكتبة وهبة للدكتور محمد الأمين الخضري، وبُذل فيهم جهد طيب، بل وأفرد كتاب عن الواو (الواو ومواقعها في النظم القرآني).

تخيل؛ إذا كنت تقوم بالبحث عن حروف الجر الواردة في السورة. وأنا أتكلم الآن عن جهد قد يصل إلى شهر متواصل لدراسة سورة مثل سورة الملك حتى يعايشها الانسان بهذا التفصيل! وكما قلت هذا لأهل الاختصاص ممن يريد أن يُخرج لنا منتجًا جيدًا جديدًا في التعامل مع النص القرآني.

هذه حول الأبحاث الواردة في المفردة.

نأتي إلى **التراكيب**: وهنا يأتي علم النحو والبلاغة.

في فهم التركيب نحتاج إلى علم **النحو**. ثم لماذا جاء هذا التركيب؟ فيأتي هنا دور **البلاغة**. أي فهم التركيب والمتعلقات والإعراب وهذا حال أم تمييز أم مفعول لأجله... فهنا يظهر علم النحو ويُفسر لك ما هو المقدم؟ هل هناك تنازع؟ وهل هناك نوع من الإعراب والاشتغال... كل هذا يقدمه علم النحو. ثم تأتي: لماذا؟ لماذا قُدِّم؟ لماذا رُكِّب هكذا؟ ولماذا أُخِّر؟ لماذا جاء التمييز في هذه السورة؟ كل هذه الأسئلة تحتاج إلى ما نسميه بصناعة الحس البلاغي.

فيبدأ الدارس في البلاغة: بدراسة القواعد، والتقسيمات التي استقرت عند المتأخرين، لكن نحتاج أن نصل إلى ما حاول أن يُفجرَّه الجرجاني من معاني في "أسرار البلاغة"، و"دلالة الإعجاز" في مسألة التذوق، وهو هام جدًا.

دائمًا توجد في كل علم من العلوم مرحلة قد لا يستطيع الذي وصل إليها أن يفسرها تقسيميًا، أو أن يصل إلى حالة من التقعيد المنضبط التام مثل (علم الأحاديث)، فهناك ما يسمى بالحس البلاغي، مثلما قيل عن الفارق بين (اشتعل شيب الرأس) وبين {وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا}[مريم ٤]، وبين {وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا}[القمر ١٢] و(فجرنا عيون الأرض)! فالإنسان يحتاج أن يمتلك هذا الحس بحيث أثناء مروره على النص القرآني تلقائيًا يتوقف ويكتشف أن هناك شيئًا ما! مثل: {أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا}[البقرة ٢٥٩] تقديم المفعول ؟سيصل إلى التذوق. الذي تمكَّن من النحو والبلاغة أو قطع فيه شوطًا على الأقل هو يفهم أصل التركيب، وأصل الجملة، وما هو المسند والمسند إليه، والفضلة ومتى يأتي، وتركيب الجملة، فإذا حدث أي تغُّير يستيقظ لديه مباشرة الحس البلاغي ويقول له: توقف! هنا إظهار في موطن الإضمار، أو هنا تقديم أو هنا حرف جر غريب! فالأذن البلاغية صنعت فتلتقط هذه الأمور.

إذا الشق الأول في فهم التراكيب هي **الإلتقاط البلاغي**.

الشيء الأول في التراكيب: **الالتقاط**...يسأل لماذا؟ فيلتقط... ثم لماذا؟ فيُفسر.

الالتقاط يحتاج إلى تَمكُّن في النحو والبلاغة، ثم التفسير يحتاج إلى جانب المعايشة وهذا لا يحتاج فقط إلى البلاغة، لأن هناك كثير من الذين تمكنوا من البلاغة تعاملوا مع النص القرآني على أنه مجرد نص لغوي...فتجده يقول: والتقديم يفيد للأهمية، والإظهار في موطن الإضمار يفيد كذا! فأصبحت مجرد ديباجات محفوظة! وكأن الباحث في النص ينسخها ويلصقها وعند أي موطن يقول: التقديم يفيد كذا! لا...بل كل موطن له دلالة.

فالالتقاط البلاغي للتغير التركيبي في الجملة يحتاج إلى حس بلاغي، ثم تفسير لماذا حدث هذا ولماذا جاء هذا النص بهذه الطريقة؛ يحتاج إلى معايشة ويحتاج إلى فهم السياق، وقد يحتاج إلى معايشة السورة القرآنية كاملةً!

فحتى يفهم الإنسان تقديم ما أو إظهار في موطن إضمار قد يحتاج لمعايشة لسورة كاملةً!

مثل مقدمة سورة المجادلة {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ}[المجادلة ١] ولم يقل: "لا تشتكي إليه"، {وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}[المجادلة ١] لماذا جاء لفظ الجلالة ظاهرًا ولم يأتي ضميرًا أربع مرات في أول آية؛ فهذا له دلالة!

قد يقول إنسان: الإظهار في الموطن يفيد كذا وكذا! وتكون جملة محفوظة لديه! أو: يفيد عشرة دلالات أنتقي منها ما يناسبني! لا؛ بل قد يحتاج الإنسان إلى أن يقرأ السورة كاملةً وأن يعايشها ويقرأ الواقع الذي نزلت فيه السورة حتى يستطيع أن يُفسِّر ويفهم لماذا جاءت هكذا؟

فهناك بعض الاعتراضات –للأسف- على الجهد البلاغي والاكتفاء به فقط في تحليل بلاغة النص القرآني. فأنا أقول: لا ينبغي أن نتوقف عند البلاغة فقط في تحليل بلاغة النص القرآني. البلاغة هي المفتاح التي فتحت لنا واكتشفنا من خلالها أن هذا النص فيه شيء ما –مثل تقديم ما أو تأخير–،لكن علينا أن نُفسِّر لماذا! لا بد ألا نكتفي بالبلاغة فقط! لكن نستصحب البلاغة ونستصحب السياق ونستصحب الواقع وسبب النزول... لأن أهل البلاغة يقولون أن فهم لماذا جاء التأكيد بأداة واحدة أو بأداتين او بثلاثة على حسب فهم الحالة الشعورية للمتكلم. أي: هل المتكلم كان يشعر بجحد ما يقول، أو كان يتألم لما يقول، أو كان يريد أن يُثبِّت نفسه بما يقول .. كل هذه الأمور تحتاج الى فهم **الحالة الشعورية** ليست نصًا جامدًا. مثل قوله تعالى: {إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي}[إبراهيم ٣٧]، {إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي}[آل عمران ٣٥] هل سنقول هنا: "واستعمل التوكيد للمقابل"؟! كيف وهو يكلم الله سبحانه وتعالى! والله سبحانه وتعالى يعلم حاله ويعلم حال المتكلم!، سواء امرأة عمران أو سيدنا إبراهيم عليه السلام في هذه الآيات. لكن لماذا جاء التأكيد هنا؟ فالتفسير مع فهم الحالة الشعورية وفهم واقع النزول يساعدنا في التعامل البلاغي مع النص القرآني.

هذا بخصوص التركيب؛ تكلمنا: فهم المفردة، وفهم التراكيب عن طريق صناعة الحس البلاغي.

هناك كتب تساعد في هذا. حقيقةً من كتب المتأخرين الرائعة التي أصَّلت ثم طبَّقت؛ كتب الدكتور محمد أبو موسى، أصلت في دلالة التراكيب والمعاني، ثم طبَّقت في سورة الأحزاب وآل حم وسورة محمد وسورة الزمر وغيرها. وأيضًا من الأحاديث في دراسة صحيح البخاري وصحيح مسلم. حقيقةً هو أصَّل وطبَّق. لأن كثير من الذين أصَّلوا لم يطبِّقوا، وإن كان هناك بعض الكتب التي اهتمت بالتأصيل في ثناياها مثل: كتب الدكتور بسيوني فيود؛ تهتم أيضًا بتطبيقات على النص القرآني. وكذلك ابن هشام رحمه الله في (القطر) وفي (شرح الألفية) كان يحرص على الاستشهاد بالنص القرآني ولكن في الجانب النحوي.

إذًا؛ في الجانب اللغوي: فهم المفردة، وفهم التراكيب، ثم يُقدِّم الإنسان السياق المجمل للآية.

النقطة الثالثه في الجانب اللغوي هو فهم وإظهار المعني المجمل للآيه.

وهنا لا بد أن يراعى أيضًا **علم القراءات**، لأن لابد أن نُنَزِّل القراءتين بمنزلة الآيتين؛ **فتفيد معنى زائدًا لا معنى مخالفًا**. وهنا تأتي كتب توجيه القراءات مثل: كتب الحجة، وكتب الكشف، وكتب أبو علي الفارسي وغيرهم- *الكلام غير واضح*.

إذًا؛ التعامل مع اللغة يحتاج إلى صناعة الحس البلاغي.

أيضا كتب الثلاث مثل: تفسير الزمخشري وعليه حاشية للطيبي، فهذه الكتب اهتمت بصناعة التذوق البلاغي، حتى ولو خالفنا بعض الآراء الواردة فيها.

نأتي لذكر الكتب المهمة.

كتب مهمة أو ما يدخل فيها التفاسير:

من المهم أن يكون لدى الإنسان خريطة للتفاسير وهو يريد أن يقرأ في التفاسير. فالتفاسير كثيرة جدًا! وهناك تفاسير اعتمدت على تفاسير أخرى، فحينما كنت أحاول أن أرسم خريطة للتفاسير وجدت أن هناك تفاسير شبه ابتلعت تفاسير أخرى! فقد تجد تفسير ابن عطية مضمنًا -أو يعني جزء كبير منه- داخل تفسير أبو حيان وداخل تفسير القرطبي، فهذه المدرسة المغربية أو الاندلسية -حتى بعد انتقال أبو حيان والقرطبي إلى مصر- استفادوا من تفسير ابن عطية. فالشاهد؛ أن هناك تفاسير مبثوثة ضمن تفاسير أخرى. والقارئ في تفسير اللباب يجد كلام الرازي، ويجد كلام الحلبي من الدر المصون مبثوث في التفسير.

فإذا فهم الإنسان هذه الخريطة قد يستغني بتفاسير عن تفاسير أخرى. فهناك تفاسير أثرية، وتفاسير تسرد الآثار، وتفاسير تحلل وتناقش الآثار، وتفاسير اهتمت باللغة، ومنها اللغة على مستوى النحو، واللغة على مستوى البلاغة، وتفاسير زاد فيها أوجه الاحتمالات التفسيرية؛ مثل تفسير ابن عطية مع اهتمامه باللغة وتوجيه القراءات. ثم استفاد منه ابو حيان؛ وإن كان أبو حيان كان مشغولًا بالزمخشري، ثم جاء تلميذه السمين الحلبي وحاول أن ينصف بينهما. والكتب التي كتبت عن الزمخشري كثيرة جدًا ومن أعظمها حاشية الإمام الطيبي.

هناك ثلاثة تفاسير بلاغية وليس في اللغة فقط، بل بلاغية متميزة وقد يصبحوا مدارس: تفسير الزمخشري، وتفسير البقاعي، وتفسير أبو السعود. استفادوا من بعضهم البعض، واستفادوا من تفسير الرازي، وأبو السعود ضمّن كلامًا للزمخشري وكلام للبيضاوي، والبيضاوي ضمّن كلامًا كثيرًا من كلام الزمخشري. والبيضاوي مهم كمتن وعليه حواشي كثيرة جدًا. لكن هذه المدارس **الزمخشري والبقاعي وأبو السعود** أرى أنها تحتاج إلى دراسة وفهم هذه المناهج.

وحقيقةً من التفاسير التي رُكِّز فيها على جانب التناسب: تفسير البقاعي، بل هو أعمق من مسألة التناسب، فهو فيه محاولة لفك المفردات، وربط الآيات بطريقة جيدة، بل مليء بالبلاغة التي تُذكر ضمنًا ولم تُحلل عند كثير من الشراح المهتمين بالتفاسير.

أيضًا؛ تفاسير المتأخرين هي تفاسير مهمة جدًا بالنسبة إلينا، لماذا؟ تفاسير المتأخرين تعاني مما نعانيه نحن من الواقع. فمن بعد ألف هجريًا وألف ومائتين هجريًا تجد أن التفاسير بدأت تُثوِّر معاني جديدة، فمثلًا: محمد عبده قد أثَّر تأثيرًا كبيرًا في رشيد رضا، وفي المراغي، وفي أبو زهرة، مدرسة كاملة تأثرت به... ومثلهم الموصلي العراقي في كتابه ((أولى ما قيل))؛ وقد تأثر به تأثرًا كبيرًا. وبالرغم من أن محمد عبده لم يُكمل التفسير وكذلك رشيد رضا، لكن التفاسير التي اكتملت وتأثرت بفكر محمد عبده واستصحبت فكره في بقية التفسير مثل تفسير: ((أولى ما قيل))، وتفسير المراغي. فهناك أناس كانت تحت ضغط المخترعات والاكتشافات مثل: طنطاوي الجوهري في ((الإعجاز العلمي))، وتأثرت بقضية كقضية الاستضعاف والحاكمية كما في ((تفسير الظلال)). فكل مفسر من المتأخرين عاش قضية مما نعايشها الآن فكان لهذه التفاسير قيمة لدينا. فهم عاشوا قضايا مما نعايشها مثل: قضية السنن والتعامل

معها. وكما قلت أن الدكتور محمد عمارة حاول أن يستخلص ما قيل في قضية السنن من محمد عبده ورشيد رضا. والكتب عن سنن الله الكونية كثيرة جدًا.

مثلًا إذا أردنا أن نعقد **مقارنة** بين تفسير الإمام الشوكاني وتفسير الإمام القاسمي.

الإمام القاسمي هو شبه خليط مجموعة من المدارس. والإمام الشوكاني هو خليط مجموعة من التفاسير.

الإمام الشوكاني هو الجامع بين فني الرواية والدراية، فهو جمع بين الطبري وبين أبي حاتم والسيوطي وهذه تفاسير الرواية، ثم اهتم بالجانب الآخر مثل تفسير الزمخشري وابن عاشور وأبو السعود، فهو جمع بين عدة التفاسير.

أما الإمام القاسمي خليط عجيب بسبب تأثره بمدرسة ابن تيمية وابن القيم، وتأثره بالتفاسير الصوفية المهيمي والقشاني وغيرهم، وتأثره بمحمد عبده، فتجد أن القاسمي حقيقةً به خليط عجيب، وكذلك تأثر جدًا بأبو سعود وكان كثيرًا ما ينسب إليه. ولكن الشوكاني كان يقلل من النسب إليه. فالقاسمي كمدرسة متأخرة أو كمفسر متأخر استوعب مجموعة من المدارس.

فقيمة تفاسير المتأخرين أنها عايشت واقعنا ولخّصت وجمعت كثيرًا من كلام المتقدمين، بل وقد تُفصِّل وتكون كنزًا!

مثل الألوس، فهو يذكر كثيرًا من كلام المتقدمين. وبالتالي فتفاسير المتأخرين قد توفر علينا الجهد، وقد تنقل لنا أشياءً من مصادر لم تصل إلينا مثل الدرر المنثور للسيوطي، وقد تعايش واقعنا وتسقط على واقع لم يتكلم فيه المتقدمين. فقد تجد مفسر متقدم يتكلم في مرحلة وصول الخلافة إلى أطراف الأرض؛ وعند آية {وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ}[النور ٥٥] يقول: "وهذا ما نراه بأعيننا". ولكننا عندما تقرأ هذا تبكي وتتعجب: رآه بعينه!! ألا ترى واقعنا المعاصر الذي نعيش فيه نحن! وتقول له: أين هذا التمكين الذي تراه بعينيك؟! أعطني عينيك لأرى بها هذا التمكين! فأنت هنا لا ترى شيئًا لأنك في قمة الاستضعاف، وبالتالي تريد أن تقرأ لمن يعايش واقعك.

فهذه قيمة **تفاسير المتأخرين** مثل: القاسمي، الشوكاني، ابن عاشور. وابن عاشور قد أبدع حقيقةً؛ وإن كان قد اهتم بالجانب البلاغي، لكن لديه اسقاطات واقعية كثيرة. وأيضا: الظلال.

وكذلك: ((التفسير القرآني للقرآن)) للخطيب؛ على ما فيه من أخطاء وإنكاره لأحاديث متواترة صحيحة، وغلَّب قضية القرآن وحكّم الأحاديث بطريقة خاطئة، لكن فيه بعض الإبداعات خصوصًا في القصص القرآني، وله كتاب في القصص القرآني جيد.

وكذلك: حبنكة الميداني ((معارج التفكر ودقائق التدبر)) فبعدما أصَّل في قواعد التدبر طبَّق في معارج التفكر بصورة جيدة. وإن كنت أرى أن الكتب المفردة التي كتبها الشيخ حبنكة الميداني -عليه رحمة الله- مثل: ((ظاهرة النفاق))، و((أمثال القرآن)) كانت أقوى من بعض الأبحاث التي جاءت في التفسير، ولكن في كلٍ خير.

ومع أهمية تفاسير المتقدمين؛ لا نريد أن نُغفل تفاسير المتأخرين، بل قد تكون عونًا لنا حينما نريد أن نتفاعل مع النص القرآني ونقدمه للناس.

الكتب المهمة التي نقرأها غير التفاسير:

مثل: الكتب التي تكلمت عن مواضيع في القرآن الكريم مثل: ((ظاهرة النفاق))، و((الهجرة في القرآن))، وكذلك الكتب التي تكلمت عن قضايا قرآنية مبثوثة.

وقد تسألني: هل تقصد التفسير موضوعي؟ حقيقةً؛ التفسير موضوعي مسألة شائكة ويحتاج إلى درس بمفرده. فهل نقصد بالتفسير الموضوعي هو موضوع السورة؟ أم موضوعات سورة؟ أم موضوع في القرآن؟ وهذا نقاش طويل وهناك أبحاث كثيرة حوله.

ومسألة أن التفسير الموضوعي هو عبارة عن موضوع في صيغة كلمة؛ مثل القول بأن موضوع سورة آل عمران هو "الحب" أو موضوع سورة كذا هو "العدل"، قد أرى فيه -في بعض السور- نوع من الاختزال. ولا أنفي أن هناك موضوع للسورة، لكن قد يصاغ الموضوع في صورة أعمق أو في صورة قضية. فيمكن أن يكتب موضوع السورة في نصف صفحة -وليس كعناوين أو جملة-. فالموضوع الذي عالجته السورة قد يكون موضوعًا لا يكتب في كلمة، ويحتاج الى صياغة قوية.

الخلاصة؛ أرى أن التفسير الموضوعي يأتي بعد التفسير المجمل والتفسير التحليلي. فمن يريد أن يكتشف موضوع سورة ما يحتاج إلى التفسير الإجمالي ثم التفسير التحليلي ثم التفسير الموضوعي. ومن خطورة تقديم التفسير الموضوعي للناس أن الكثير من الناس يكتفي به فقط... وأرى –والله أعلى وأعلم– أن الناس يحتاجون أولًا إلى التفسير المجمل للآية ثم التفسير التحليلي ثم التفسير الموضوعي للسورة.

جانب المعايشة:

نأتي بعد ذلك لجانب المعايشة الذي هو ركن كامل قد يغفل عنه المفسر والمتخصص والذي يريد أن يعايش سورة، ويريد أن يقدم منتجًا للناس، قد يكتفي بالجانب المعلوماتي ثم يتكلم مع الناس مباشرةً ويقدمه لهم –هذا لا ننكر وجوده ولا نقلل منه– ولكن أقول هناك أكمل من ذلك وهو اصطحاب جانب المعايشة.

الجانب المعلوماتي مفيد و...و إلخ **للضبط**، لكن لو نحن نريد أن نعايش النص القرآني ونتكلم مع الناس أن النص القرآني جاء ليحل لهم مشاكلهم هذا أمر مختلف.

لو قلنا أن هناك معادلة: إنسان + واقع + نص، أي أن هذه المعادلة؛ الإنسان والواقع والنص تُخرج لنا منتجًا.

لو الإنسان مبني بالأدوات المعلوماتية بناءً صحيحًا، ويحيا بمشاعر ملتهبة، ثم اشتبك هذا الإنسان الذي عنده أدوات في الأثر واللغة كما تكلمنا ، وقرأ في التفاسير و... إلى جانب المعايشة الذي سنتكلم عنه هذا بناء الإنسان، ثم نزل إلى الواقع، لم يكتفي بالانعزال عن الناس، بل نزل واشتبك مع الواقع حقيقةً فاطلع على واقع الناس، ثم جاء ليتفاعل وبحث عن حلول؛ هو الآن عنده معلومات ومطلع على مشاكل من الواقع، معلومات ومشاعر عند الإنسان وقضايا واقعية، ثم يبحث عن هذه القضايا في النص الثري.

إذًا إنسان مليء، واقع مليء بالأحداث ونص ثري معطاء يعطينا منتجًا تفسيريًّا جيدًّا.

على قدر ما يمتلئ الإنسان بالمعلومات والمشاعر، وفهمه للواقع، وتعامله الصحيح مع النص، على قدر المنتج الذي يخرج يكون منتجًا قويًّا.

فلذلك الذي يفرق ما بين منتج تفسيري أو تفاعلي مع النص القرآني، مابين شخص وشخص، هذه الأمور الثلاثة.

مثلاً لنكن صرحاء كتاب ((في ظلال القرآن)) على ما فيه من انتقادات وعلى ما فيه من أخطاء تم التحدث عنها؛ في قضايا الأسماء والصفات، أو في تركيزه على بعض القضايا وإعطاءها حجم أكبر من حجمها... والحسن الندوي انتقد المودودي والظلال، وقال عماد الدين خليل: إن بعض منتجات الظلال هي مأخوذة من المودودي... أيًّا كانت هذه القضية، **كثيرٌ من الناس تجد بغيتها ومعانيها في((في ظلال القرآن))**.

قد يقال: لا، هذا لأنه ليس تفسيرًا، إنما هو معايشة، نعم .. الذي أقوله إن **الإثراء الذي حدث في الظلال هو بسبب الاشتباك الواقعي**. قد تقول لي: كان هناك نقص في الأدوات المعلوماتية، حسنٌ، إذًا زيادة الأدوات المعلوماتية عند الإنسان،مع مشاعر وجدانية ملتهبة، مع اشتباك مع الواقع، ثم تذهب إلى النص وتقوم الليل بالنص القرآني، هكذا يخرج منتجًا جيدًّا.

إذًا لو إنسان يريد أن يخرج منتجًا جديدًا في التعامل مع النص القرآني عليه بهذه الثلاث:

النص الثري هذا في قيام الليل.

اشتباك واطلاع على واقع المسلمين،والاهتمام بواقع المسلمين، والتعرف على تفاصيل الواقع لا يكون منعزلاً عن الواقع.

الإنسان يكون مليئاً بالمعلومات التي تكلمنا عنها في الآثار وفي اللغة، **وأيضًا مليئًا بالمشاعر الملتهبة**.

هذه الثلاث تخرج منتجًا -بإذن الله سبحانه وتعالى- مختلف يُشعر الناسَ أننا عمليًا نقول بتاريخية القرآن الكريم -ولو لم يقل بلسان المقال-، ونحن قلنا نحتاج موازنة بين حبس النص وبين الجرأة على نص.

نحن قلنا إن العلم ثلاثة أشياء: أثر، لغة ، كتب مهمة منها تفاسير. طبعاً نقطة الكتب المهمة طويلة لكن للأسف الوقت يداهمنا.

المعايشة سنقسمها جزأين: **واقع النزول - واقع التلقي.**

إذًا المعايشة هنا لتعايش النص القرآني محتاج تعايش واقع النزول ومحتاج تعايش واقع التلقي، ومحتاج لو أنت تتعامل مع سورة تدرس ما يسمى بخواص السورة القرآنية. في كتاب جميل اسمه ((خواص السورة القرآنية)) لتركي بن سعد الهويمل، طبعة ابن الجوزي، كتاب جيد.

كيف نتعرف على خواص السورة القرآنية ؟

لكن سؤال: كيف نتعرف على خواص السورة القرآنية ؟ في ظني خواص السورة القرآنية تُعرف بطريقين، أي: لو أنا أريد أن أعرف ما هي خواص سورة الكهف -إن شاء الله تكون السورة القادمة في الشرح- ما هي خواص سورة الكهف؟ كيف أتعرف عليها؟ ما هي الخصائص التي تميزت بها سورة الفلق .. سورة البقرة .. سورة الكهف؟ ما هي خصائص السورة؟

هناك طريقان؛

الطريق الأول: هو **الطريق الأثري**، وهذا الذي عليه كل الاهتمامات، وهذا اللي فعله كتاب ((خواص سور القرآن الكريم)) وغيره، أو الأحاديث والفضائل الواردة في سور القرآن الكريم .. أي نبحث هل وردت آثار عن النبي ﷺ ؟ أو عن الصحابة؟ أو حتى عن التابعين أن هذه السورة لها ميزة خاصة، لها خاصية خاصة؟ أنها تحفظ من عذاب القبر؟ أنها تقرأ قبل النوم؟ أنها نزلت في كذا؟ أن لها شيء معين من الخواص؟

أقول إن هناك جانب آخر لفهم خصائص السور القرآنية وهو **الجانب الاجتهادي**.

أي هناك **جانب توقيفي أثري**، وهناك **جانب اجتهادي**.

الجانب الاجتهادي: أي أنت تجتهد لتعرف أن هذه السورة لها خصائص. ستقول لي كيف أعرف؟ هل أقول شيئًا من عندي؟! هل أقول فضائل لمن قرأ سورة الكهف يوم الثلاثاء بعد العصر؟! لا؛ لم أقل ذلك.

إذًا كيف أعرف خواص السورة القرآنية؟ مثلاً تجد في **سورة الكهف** أربع قصص لم تأتِ في أي مكان آخر في القرآن، بل حتى قصة سيدنا موسى الذي ذُكرت كثيراً في القرآن،جاءت له قصة عجيبة في سورة الكهف لم تأتِ في مكان آخر...مثال آخر: قصة سيدنا إبراهيم في سورة الأنعام مختلفة عن قصة سيدنا إبراهيم في سورة الصافات.

تكتشف خصائص القصة الموجودة في السورة؛ المفردات، أو الفرائد- ألفاظ معينة جاءت في سورة ولم تأتِ في سورة أخرى- ، نهايات الآيات، طريقة الصياغة، والمقدمات .. كل ذلك وأنا أحاول أن أدرس ما تميزت به هذه السورة هذا باجتهادي، هذا بإعمال النظر والفكر. هذه بدأت بالحمد، وهذه انتهت بكذا، وتلك احتوت على أسئلة...إلخ.

مثلا؛ سورة الملك من خصائصها أنها سورة ثلاثون آية فيها ما يقرب من أربعة عشر سؤالاً أو اثني عشر سؤالاً -لو دمجنا سؤالين من الأربعة عشر سؤال- أي تقريباً منتصف السورة أسئلة... فهذا مما يميز هذه السورة.

هذا اجتهاد من الإنسان أن يبحث فيما يميز السورة القرآنية. أحياناً نكتفي بالجانب الأثري في اكتشاف خواص السورة القرآنية .. خواص السورة القرآنية لها جانب توقيفي وجانب اجتهادي، وهذا حسب اجتهاد المتأمل والمتفكر في السورة.

الشق الأول من المعايشة هو استحضار **واقع النزول**، كيف يكون؟

قلنا المعايشة؛ يشمل واقع النزول وواقع التلقي.

كيف إذًا أعايش واقع النزول؟! أنا لم أكن معهم. **أعود إلى آثار أسباب النزول**، وليس أسباب النزول فحسب، وهنا يأتي دور كتب السير؛ كتب سيرة النبي ﷺ، وكتب سير الصحابة، أي أن لو تريد أن تعايش الواقع الذي نزلت فيه سورة آل عمران، كيف تستطيع أن تفسر سورة آل عمران بدون معايشة آلام وجراح غزوة أحد؟! كيف؟! .. أي: لن تشعر بقيمة كلمة {أَنَّىٰ هَٰذَا}[آل عمران ١٦٥] إلا إذا كنت معهم، وترى الدم يسيل من وجه النبي ﷺ، وترى أحب الخلق إليه حمزة رضي الله عنه، ومصعب وهو يُقطَّع ويُمزَّق، وترى الدماء وتشعر بالهزيمة، وتتعجب كيف هُزم ونحن مع النبي ﷺ؟! **فيظهر منك السؤال قبلهم**.

لن تستطيع أن تفهم هذه الآيات التي جاءت في آل عمران لتجاوب عن أسئلة نفسية بداخلهم، كيف تستطيع الدخول إلى ما في نفوس الصحابة؟

مثال آخر: سيدنا إبراهيم وهو يقول في سورة إبراهيم كما قال تعالى {رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ}[إبراهيم ٣٨]، كيف تستطيع الولوج إلى ما يخفيه إبراهيم عليه السلام بدون معايشة ما حدث لإبراهيم عليه السلام مع هاجر، وترك إسماعيل في الصحراء، والابن الذي طالما انتظره وهو يتركه في الصحراء وليس هناك ماء؟!

تريد أن تعايش النص القرآني، أنت الآن لا تفعل شيئًا في واقعك، أنت تعايش واقع النزول وليس واقع التلقي -وسنتحدث لاحقًا عن واقع التلقي-.

معايشة واقع النزول؛ أن تبذل جهداً كبيراً في مسألة قراءة سير الرسول والصحابة والواقع الموجود وقت النزول.

واقع النزول المدني أحياناً يكون أسهل من واقع النزول المكي، لماذا؟ لأن السور المدنية أقل من السور المكية؟ وأحداث المدينة كثيرة. فقد تستطيع أن تربط أحداث سورة ما بأحداث المدينة؛ لأنها أحداث كثيرة جداً.

القارئ في السيرة يجد أن العهد المدني مليء بالأحداث، تواريخ كثيرة جداً؛ غزوة كذا، وسرية كذا، وموقف كذا، وزواج كذا، وطلاق كذا، أحداث كثيرة جداً في المدينة. فقد تربط الأحداث الواردة في السور المدنية بالسيرة... القرآن المكي يحتاج فيه إلى جهد أكبر.

ومن الكتب الجيدة في مسألة معايشة واقع النزول –وإن كنت مختلفًا معه في بعض الأمور– .

ولنضع قاعدة: **ترشيح كتاب ما لا يعني قبول كل ما فيه ولا قبول لمنهج المؤلف، لكن قبول جزء جيد فيه**– مثلاً –وإن كان هذا الكتاب كنت أتوقع أن يكون أعمق من هذا–،كتاب اسمه ((السيرة النبوية في ضوء الهدايات القرآنية العهد المكي))، وهو يتكلم عن القرآن في العهد المكي، يحاول أن يربط بين أحداث السيرة المكية وبين القرآن الذي نزل.

أيضاً كتاب ((السور القرآنية في حركية السيرة النبوية)) طبعة الرسالة، يريدك أن تعايش حركية السيرة ويربط بها أحداث القرآن.

هنا أنت تقوم الآن في الخريطة التي نريد أن نرسمها؛ خريطة المعايشة؛ المعلومات: أثر ولغة وكتب مهمة، المعايشة: واقع تلقي وواقع نزول، هذا أين يُوضع؟ هذا يُوضع في واقع النزول، هذا يساعدك في فهم واقع النزول وإن كان أيضاً –كما قلت– عليه بعض النقاط التي اختلف مع المؤلف فيها.

كتاب ((سيرة الرسول ﷺ صور مقتبسة من القرآن الكريم)) لمحمد عزة دروزة، كتاب جيد أيضًا نوعاً ما، الكتاب جزءان مبذول فيه جهد طيب.الكتب من هذا النوع مفيدة، بالإضافة لقراءة سير الصحابة وكتب السيرة نفسها، قراءة المتعمقة في قراءة السيرة، كلما قرأت في السيرة كثيراً فُتح عليك في فهم واقع نص القرآن بمعايشة واقع النزول.

نضرب مثالاً: تخيل في بلادنا سوريا الحبيبة وما تعاني من قضايا ومشاكل وابتلاءات، فقام أحد الشعراء من الذين جاهدوا ويبذلون دماءهم وأموالهم، ثم قال شعرًا فيهم ليضحوا بأموالهم وينصروا دينهم .. أو مثلا في المسجد الأقصى؛ قام خطيب المسجد الأقصى ليحث المسلمين هناك وتكلم بكلامٍ بليغ جداً، فيه حث المسلمين على جهاد اليهود مثلاً .. لو أن أحدا لا يعرف أي شيء عن موضوع المسجد الأقصى ولا اليهود ولا ما القصة؟ ولا ما الذي حدث؟ وقرأ نصًا بلاغيًّا جيدًّا .. لتفهم كل كلمة على حقيقتها و كل كلمة تلامس شعوراً، كل كلمة قالها هذا الرجل كانت تستجلب الدموع، أنت تقرأ ولا تبكي .. لماذا؟ لأنك لم تعايش الواقع، لكن حينما تقرأ كيف أُخذ منا المسجد الأقصى؟ وأننا نريد استعادته، وما يبذله اليهود من خطط ومكر ووو .. تستطيع أن تفهم أثر هذه الكلمات، هذا مع كلام بشر .. ولله المثل الأعلى.

ففهم كلام ومعايشة كلام رب البشر على واقع النزول مهم جداً، إنك تستقرئ خلفية الأحداث التي نزل فيها النص القرآني، هذا ما نسميه واقع النزول، لا بد أن تبذل جهدك فيه.

أنت لن تستشعر الآلام أو البُشريات في {تبت يدا أبي لهبٍ وتب}[المسد ١] أو {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}[الكوثر ١] على قصر هذه السورة. لكي تتخيل واقع النبي ﷺ وهو يقرأ : {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ} [الكوثر ١]، النبي ﷺ يبحث عن من يسانده لنصرة الدين وهؤلاء يعايرونه بأن أولاده الذكور قد ماتوا، وهذا الرجل الأفاك يقول عنه إنه أبتر-ﷺ-! ماذا استشعر النبي ﷺ وهو يقرأ {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}؟ ما المعاني النفسية التي كانت بداخل الصحابي وهو يقوي من نفسه وهو يقوي من عزيمته ويقول: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}[المسد ١] .. فاستشعار واقع النزول مهم جداً في هذه القضية.

الشق الثاني من لمعايشة هو إدراك واقع التلقي :

ننتقل إلى واقع التلقي، ما معنى واقع التلقي؟ أي: هناك واقع لنزول القرآن وهناك واقع تلقيك أنت، المتلقي الآن الذي يريد أن يفسر، الذي يريد أن يعايش، ما هو واقعك؟ كيف ستستشعر آيات: {يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ}[الأعرف ٦٧]؟ {يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ}[الأعراف ٦١]؟ **آيات الدعوة**: { إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ}[الدخان ١٨]، {إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ}[نوح ٢]، {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ}[الكهف ٦]؟

هذه الآيات كيف ستشعرها وليس لك جهد دعوي؟! كيف تستشعر الآيات التي جاءت لتصبير المؤمنين وأنت لا تعايش أصلاً هذه القضايا؟! أنت تعيش في وضع هادئ، أنت لا تعاني أي قضية مطلقا!، أنت لا تشعر بأي آلام ولا تبحث عن أي حلول لأي مشاكل!،القرآن جاء يقدم لك حلولاً وأنت لا تعايش هذه المشاكل، لن تستفيد.

ودائماً أضرب مثالاً مشهوراً: لو أنك قرأت أو قابلت كتابا عنوانه ((كيف تصبح مليونيراً))، ثم قيل لك: غالب من قرأ هذا الكتاب "كيف تصبح مليونيراً" وطبقه، قرأه بجد واهتمام، وطبق كل حرفٍ فيه بالفعل أصبح مليونيراً! تخيل! ثم أنت حصلت على الكتاب، كيف ستتعامل معه؟ تخيل لو أنك لا تريد المال أو أنت لست مليونيرًا بل أنت ملياردير، فأنت لن تهتم بالكتاب، لكن تخيل لو أن إنسان يبحث عن المال، وبالفعل وجد بنفسه من طبق وشاهدهم قبل الكتاب وبعد الكتاب، وأيقن أن هذا الكتاب بالفعل أثر فيهم، كيف سيتعامل مع هذا الكتاب؟

ولله المثل الأعلى، انظروا إلى كلام الله ﷻ حينما نزل على واقع الصحابة. أريدك أن تتخيل النبي ﷺ والصحابة قبل القرآن وبعد القرآن، -تكلمت عن هذا في آخر درس "ابتغاء تأويله" النبيﷺ قبل القرآن كان يلقبونه الصادق الأمين وبعد القرآن رسول الله يعادونه و... كيف تغيرت المعاملة؟ كيف تغيرت الأحداث؟ كيف تغيرت الخريطة ؟ كيف تغير الناس بعد نزول الوحي؟

هذا الكتاب من طبقه هم أفضل الناس بعد الأنبياء؛ صحابة النبي ﷺ.

إذا غاب عنك استحضار واقع التلقي عليك باللجوء إلي الخطة البديلة وهي صناعة الواقع بنفسك: **صناعة الهموم**.

إذًا **استشعار أن الكتاب يقدم حلولاً**، لكن لو أني لا أعايش هذه المشاكل في واقع التلقي، فواحد يقول لي: معنى كلامك لكي أفهم سورة لابد أن يكون لي واقع مماثل لواقع النزول، بمعنى أنني بعدما فهمت واقع النزول، لو واقع النزول واقع استضعاف مثلا أنا محتاج أن يكون لي واقع مماثل، لو واقع النزول واقع فتنة وانتشار شائعات وانتشار شبهات أنا محتاج أن يكون لي واقع مماثل لأستشعر النص القرآني؟... فلنفترض أن الواقع الذي أعيشه لا يماثل واقع نزول القرآن أو هل أنا لن أستطيع أن أفهم الآيات التي تكلمت في واقع الاستضعاف لو أنا أعيش واقع تمكين ما أو العكس؟! أقول لك: هنا دور ما نسميه ((**صناعة الهموم**))، ما معنى صناعة الهموم؟ كيف تصنع همومك؟ أي ليست الهموم التي بداخلنا تصنع بأن نعيشها على واقع الأرض فحسب؛ **بل قد نقرأ عنها ونتفاعل معها**.

مثلاً: القراءة كثيراً عن الهجرة حتى لو أنا لم أُبتلى في بلدي وأضطر للهجرة، القراءة عن واقع النزول، عن هجرة النبي ﷺ وهجرة الصحابة وتفاصيل السيرة.

ومن الكتب الجيدة كتاب اسمه ((منظومة الهجرة في القرآن الكريم)) أنا عشت الآن واقع النزول والهجرة، لكن ليس عندي واقع مماثل، لم أُبتلى بأن أُطالب بالهجرة. أن تقرأ عن الذين هاجروا، عن الذين طبقوا هذه الهجرة في واقعك وفي الواقع القديم وفي واقعك المعاصر، بل فيما نعايشه الآن من ابتلاءات المسلمين والاضطرار للهجرة وترك بلادهم، أن تقرأ عنهم أن تتفاعل معهم أن تراسلهم أن تتكلم معهم، أنت الآن تعايش واقع مماثل، أنت تصنع الهموم بداخلك، حتى لو لم يكن لك واقع مماثل لهذا الابتلاء.

هذاما يسمى بصناعة الهموم.. وهنا هذا دور الكتب التي ممكن بعضنا يسميها كتب فكرية، كتب في المشاكل، كتب في الواقع.

بعض الناس قد يقول لك: ما دخلك بهذه الكتب؟! أنت منشغل بالتفسير ومنشغل بشرح التفسير والقرآن للناس، لماذا إذًا تقرأ في الليبرالية؟ لماذا تقرأ في العلمانية؟ لماذا تقرأ في النسوية؟ لماذا تقرأ عن الرأسمالية؟ لماذا تقرأ عن مذاهب فلسفية؟ لماذا تقرأ في هذه الأمور؟ **لأني أبحث عن حلول من النص القرآني لهذه القضايا**، وأنا لا أعايش العلمانية مثلاً –مع أننا كلنا الآن نعاصر العلمانية–، لكن نفترض أن **واحد لا يعايش قضية ما فلا بد أن يصنع همومًا**.

إذًا هناك عنوان مهم جداً تحت عنوان "واقع التلقي" وما يُسمى ((بصناعة الهموم))، لا بد أن تقرأ، الذي يريد أن يهتم بجانب التفسير يقرأ كثيراً في كتب قد يظن الظانّ لأول وهلة أنها لن تفيد في فهم النص القرآني، لكنها تفيدك...لو تريد أن يكون لك دور، كما قلنا إنسان وواقع ونص وتخرج منتجًا للناس، هذا هو دورك، لكن لو دورك توضيح وتبسيط وتفسير النص القرآني، ثم دور الناس التفاعل وتشتبك هي مع الواقع، إذًا أنت لست مطالبًا بهذه الأمور، بمعنى أن هذه الخريطة التي تكلمت عنها ليس كل الناس مطالبين بها، أنا أتكلم عن منهجية عامة مقترحة، قد يقال أنا لا أطبق كل هذا؟، نقول نأخذ ما نستطيع ونترك غيرنا يأخذ ما يريد.

أمثلة تطبيقية في مسألة واقع التلقي:

المثال الأول : سورة مريم.

آخر حاجة اختم بها مثال تطبيقي سريع في مسألة واقع التلقي، لو أخذنا **سورة مريم** كمثال للتفسير... الجانب المعلوماتي وجانب المعايشة.

الجانب المعلوماتي: سيقرأ في الآثار يفهم المدارس والأسانيد...كيفية التعامل أو مجال العمل: الآثار، اللغة، يحلل كل الألفاظ الواردة يبحث عن الفرائد والمفردات.

من الكتب التي نزلت حديثاً في المعرض الماضي كتاب الدكتور توفيق زيادي تكلم فيه عن أفانين السورة القرآنية واختار سورة مريم وسورة الأنفال نموذجاً. تناول المفردات التي جاءت في سورة مريم واختار منها بعض الكلمات مثل {حَتْمًا}[مريم ٧١]و {الْمَخَاضُ}[مريم ٢٣]. فيدرس خواص السورة القرآنية

بصورة اجتهادية...ثم ينظر للآثار التي وردت في سورة مريم نجد أنها من العتاق الأول هي من تلادى كما قال ابن مسعود .

مثال : المنهجية كاملة بالترتيب لمعايشة سورة مريم

أريد أن أفهم سورة مريم؛ إذًا سأقرأ في الآثار سأقرأ في اللغة، أفهم تركيب الألفاظ و المفردات واشتقاقها وبناءها وتركيباتها وأنمي الحس البلاغي واقرأ في التفاسير وكذلك لو كتب تكلمت عن سورة مريم. قد تحتاج إلى شهر كامل أو أكثر لمعايشة هذه السورة .. أنا أتكلم عمن يريد أن يصاحب القرآن، أتكلم عمن يريد أن يكون هذا القرآن مخالطاً للحمه ودمه.

انتهينا من الجانب المعلوماتي وتفاصيله .. نأتي لجانب المعايشة؛ قلنا المعايشة من شقين واقع النزول وواقع التلقي.

كيف نعايش واقع النزول؟ سورة مريم في العهد المكي وقلنا أن العهد المكي الكتب التي تناولته قليلة لأن الأحداث فيه قليلة. بعض الناس حاول يلتقط بعض الكلمات التي تكررت في سورة مريم وجد أن اسم **الرحمن** تكرر فيها كثيرا، كلمة **الولد** سيدنا زكريا يريد الولد، السيدة مريم يأتيها الولد، نفي الولد عن الله سبحانه وتعالى.

حسنا؛ أنا أريد أن أفهم وأغوص أكثر في النص القرآني؛ تجد قضية الوراثة تكررت ثلاث مرات، ثم ختام السورة بقوله تعالى {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ}[مريم ٩٧] .. هنا أريد أن أقول معلومة مهمة جداً؛ ذكرتُ هذه المعلومة في مقدمة تفسير سورة مريم أو وقفة مع سورة مريم هي موجودة على الساوند كلاود ويمكنكم الرجوع لها، أذكرها مختصرة وارجعوا إليها مفصلة : **فهم النص القرآني يختلف على حسب المشاعر والهموم التي ادخل بها السورة**، هنا يمكنكم الرجوع لكتاب مبسط اسمه ((بناء الإيمان من خلال القرآن)) لمجدي الهلالي.

قاعدة جميلة ذكرها حبنكة الميداني في قواعد التدبر الأمثل: أن النص الواحد–نص الآية الواحدة– قد تفيد أكثر من إنسان على حسب التلقي بمعنى مثلاً هو ذكر مثال {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ}[المدثر ٣٠] فقال أن الآية في سورة المدثر جاء فيها {.. لِيَسْتَيْقِنَ .. وَلَا يَرْتَابَ} إذًا النص الواحد والآية الواحدة تجعل إنسان يرتاب وإنسان آخر يوقن أي يختلف الأثر حسب الشخص.

نضرب مثال آخر {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ}[الكهف ٢٨] قراءة هذا النص كإنسان في بداية طريق الالتزام وترك بيئة المعاصي، تختلف عن إنسان يعمل في الدعوة، تختلف عن واقع هذه الآية على النبي ﷺ، فهمك للآية قد يختلف على حسب همومك، بل أقول قاعدة عامة أكبر من ذلك : **استفادتك من أي عبادة على قدر اهتمامك وعلى قدر همومك**؛ بمعنى أن استفادتك من الصلاة على قدر الهموم التي تحملها، استفادتك من العبادة على قدر احتياجك لها.

إذًا لو نريد أن نطبق قاعدة استفادتك من العبادة على قدر احتياجك لها، فبالتالي استفادتك من النص القرآني على قدر احتياجك له {كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ}[الفرقان ٣٢] أي أنزلناه مفرقاً {كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ}[الفرقان ٣٢] يُثبت الفؤاد على قدر الاحتياج... لكن لو الإنسان لا يحتاج للنص القرآني فتخيل كيف سيكون تفاعله أو استفادته! إذًا الاستفادة من النص على حسب الاحتياج.

مثال آخر: "لا بأس طهور إن شاء الله"[٣] كلمة تُقال يشعر بها المريض لماذا؟ لأنه يحتاج إليها .. الكلمات التي تلقاها آدم؛ إنسان لا يشعر بالذنب ولا يشعر بالغصة والبعد عن الله بسبب الذنوب لن يستشعر هذه الكلمات، لكن آدم عليه السلام تلقاها وكان ينتظرها.

نعود لسورة مريم؛ تخيل أنا أستشعر واقع نزول سورة مريم وبالتالي سأستفيد في واقع التلقي؛ النبي ﷺ احتاج إلى أعوام هو بدأ بمفرده كما قال-ﷺ- (أوذيت في الله ولم يؤذ أحد)[٤] مرت فترة النبي ﷺ وحده يُؤذَى عليه الصلاة والسلام ، يريد أعوانا... فتبدأ السورة بنموذج لنبي آخر يستشعر نفس الوحدة ويستشعر أنه بدأ يكبر واشتعل رأسه شيبًا وزوجته عاقر ويريد أعواناً، ثم نموذج أن العون أو الولد قد يأتي بدون سبب مثل السيدة مريم وأن الله جل وعلا لا يحتاج إلى الأعوان .. حسنا؛ النبي كيف سيحصل على العون؟ النبي ﷺ كيف سيحصل على من يسانده؟ فيقول الله له سبحانه وتعالى في آخر السورة؛ **الله يجعل للإنسان الود بين الخلق** {سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا}[مريم ٩٦] كيف يا رب ستحصل على

---

[٣] [عن عبدالله بن عباس:] أَنَّ النبيَّ ﷺ دَخَلَ على أعْرابِيٍّ يَعُودُهُ، قالَ: وكانَ النبيُّ ﷺ إذا دَخَلَ على مَرِيضٍ يَعُودُهُ قالَ: لا بَأْسَ، طَهُورٌ إنْ شاءَ اللَّهُ فَقالَ له: لا بَأْسَ طَهُورٌ إنْ شاءَ اللَّهُ قالَ: قُلْتُ: طَهُورٌ؟ كَلّا، بَلْ هي حُمّى تَفُورُ، أوْ تَثُورُ، على شيخٍ كَبِيرٍ، تُزِيرُهُ القُبُورَ، فَقالَ النبيُّ ﷺ: فَنَعَمْ إذًا.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٣٦١٦ • [صحيح]

[٤] [عن أنس بن مالك:] لَقَدْ أُخِفْتُ في اللهِ وما يُخافُ أحَدٌ. ولَقدْ أوذيتُ في اللهِ وما يُؤذى أحَدٌ. ولقدْ أتَتْ عليَّ ثلاثونَ، من بينِ يومٍ وليلَةٍ، وما لِيَ ولبلالٍ طعامٌ يأكُلُهُ ذو كبِدٍ إلّا شيءٌ يواريه إبطُ بلالٍ

الترمذي (ت ٢٧٩)، سنن الترمذي ٢٤٧٢ • حسن غريب • أخرجه الترمذي (٢٤٧٢)، وأحمد (١٤٠٥٥) واللفظ لها، وابن ماجه (١٥١) باختلاف يسير.

هذه المودة؟ **من خلال الوحي** {يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ}[مريم ٩٦]، فهم السورة قد يختلف تماماً حينما تعايشها، لو وُفقت لمعايشة مشاعر معينة توافق واقع النزول ثم كان لك واقع مماثل... أنت تريد أن تنصر الدين لكن لا تجد من يساعدك على نصر هذا الدين!

المثال الثاني: كذلك سورة سبأ الذي يدخل لسورة سبأ {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ}[سبأ ١] غير {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[الفاتحة ٢] وغير {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ}[الأنعام ١] وغير {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ}[الكهف ١] غير {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ}[فاطر ١] .. هنا -في سورة سبأ- تحمد الله سبحانه وتعالى أنه يملك كل شيء! ويأتي في سورة سبأ ذكر ملك كامل لسليمان ثم ينتهي... ثم ملك سبأ ثم يسقط الملك ويضمحل... وتجد في السورة يقول المترفون {نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ}[سبأ ٣٥] **السورة مليئة بقضية الملك والأسباب المادية**...من يستشعر واقع سورة سبأ وأن المسلمين في استضعاف مادي، يريدون مادة ينصرون بها الدين... فيقول الله سبحانه وتعالى: ملك سليمان كان مبني على الكوادر المسخرة، من الشياطين التي سخرها الله لسليمان، فبمجرد تآكل المنسأة -التي أخّرت سقوط هذا الملك قليلاً- وكان يؤخر بها الشياطين سقطت مملكة سبأ!... لكن أنت يا محمد ﷺ تصنع رجالاً يبقون بعدك.

فالخلاصة؛ فهم السورة قد يختلف تماماً حينما تعايش واقع النزول ثم يكون لك واقع تلقى مقارب .

المثال الثالث: كذلك **سورة الحجرات** بناء مجتمع جديد، وضع أخلاق للمجتمع، دخول قبائل جديدة؛ الذين قالوا آمنا {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا}[الحجرات ١٤] دخول قبائل أفسدوا الطرقات، وأفسدوا الأماكن، وادعوا الإسلام وادعوا الإيمان .. تنزل السورة لتطبق معايشة واقع النزول ثم يكون لك هَم في واقع تلقي.

المثال الرابع: سورة آل عمران كما تكلمت؛ فهم واقع النزول مهم جدا؛ شبهات النصارى المستمرة، ثم واقع التلقي؛ أنك تريد أن تدافع عن الإسلام ضد النصارى وضد الملحدين .. فهم كيف تعامل القرآن مع شبهات النصارى، **كيف تعامل القرآن مع الأقدار الغير المفهومة**، مع الأزمات، مع الهزيمة، وأزمات المسلمين، وإسقاط هذا على الواقع .. **كل هذا من خلال واقع التلقي**.

أعتذر عن الإطالة..

هناك كتب كثيرة كنت أريد أن أشير إليها؛ هناك كتاب اسمه ((تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين دراسة وتطبيق)) كيفية أن حتى من المفسرين من فعل ذلك. قد يقول بعض الناس: جهد المعايشة هذا قد يكون فيه نوع تعنت وتكلف فتلوي عنق النص لتسقط هذه الآيات على الواقع! قد يحدث ذلك وقد لا يحدث .. لكن **نحن مطالبون باستعمال النص القرآني لحل مشاكل الواقع**.

والكتاب يحكي نموذج كيف كان بعض المفسرين وذكر نموذج ابن تيمية ونموذج القرطبي ونموذج لرشيد رضا كيف أسقطوا آيات النص القرآني على الواقع، بل هناك نصوص جيدة جميلة لشيخ الإسلام ابن تيمية كيف استقى بعض آيات من سورة الاحزاب وأسقطها على واقع التتار.

فلما يأتي إنسان يحاول يعايش نص قرآني ما ،ويسقط هذه الآيات على الواقع بانضباط وفهم وامتلاك أدوات وفهم جيد للواقع سيكون أمر جيد، أما حين يحدث تعدي وتعنت وتكلف ولي لعنق النص، وعدم فهم جيد للواقع قد يؤدي إلى مشاكل خطيرة نعم ، لكن لا ننفي أصل الفكرة: تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين.

هناك بعض الكتب التي اجتهدت في تناول تعامل النص القرآني في التغيير...هناك ((منهج القرآن الكريم في التغيير الفردي))، وكتاب نزل حديثا ((القرآن وماهية التغيير–النص الديني والإنسان)) كتاب استفاض في قضايا كنت أتوقع أنه يكون أكثر تركيزاً فيها، كتاب مجمل جيد، وإن كان فيه بعض القضايا التي قد نخالف فيها المؤلف– جزاه الله خيراً–، ولكنه كتاب جيد اسمه ((القرآن وماهية التغيير–النص الديني والإنسان)).

خاتمة المجلس:

أعتذر على الاطالة ولعل الله سبحانه وتعالى يقدر مجلس آخر مثل هذا .. عن خارطة التفاسير، وعن قضية التفسير الموضوعي، وكذلك بعض القضايا التي تطرقنا إليها ولم أستطع أن أفصل فيها.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن، وأن يفتح لنا فهماً، وأن يفتح لنا فتحاً مبيناً في فهم كتابه سبحانه وتعالى، وأن يجعلنا ممن يعطوا أعمارهم لكتاب الله سبحانه وتعالى، ولا نستخسر

أعمارنا في فهم كتاب الله .. الإنسان قد يبذل من عمره في فهم وفي قراءة أشياء كثيرة، لكن قد يأتي عند كتاب الله سبحانه وتعالى فيستطيل الطريق... فإذا قيل له لابد من تحصيل أدوات، لابد من بذل الأوقات مع كتاب الله سبحانه وتعالى استطال الطريق! وما قيمة عمرٍ لا يبذل في فهم كتاب الله سبحانه وتعالى. أسأل الله سبحانه وتعالى أن يفتح لي ولكم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك وجزاكم الله خيرا.